اللغة والمجتمع

الدكتور: علي عبد الواحد وافي

شركة مكتبات عكاظ
للنشر والتوزيع

اللغة والمجتمع

تأليف

الدكتور علي عبد الواحد وافي
دكتور في الآداب من جامعة باريس
عضو المجمع الدولي لعلم الاجتماع
عميد كلية الآداب بجامعة أم درمان
عميد كلية التربية بجامعة الأزهر
وكيل كلية الآداب ورئيس قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية
بجامعة القاهرة سابقاً

وفى نهايته تعليق المرحوم عبد العزيز فهمى (باشا)
على الكتاب وتعقيب من المؤلف

شركة مكتبات عكاظ
للنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة لشركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع

جـدة : ت ٦٧٢١٠٠٠
(عشرة خطوط)

الرياض : ت ٤٠٤٠٨١٤

الدمام : ت ٨٢٦١١٠٨

مكتبة لسان العرب
رفع أ. علاء الدين شوقي أسكنه الله الفردوس

الطبعة الرابعة للكتاب
والأولى للناشر
١٤٠٣ هـ ــ ١٩٨٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تمتاز الظواهر الاجتماعية ــ وهى التى يتألف من دراستها موضوع علم الاجتماع La Sociologie ــ بصفات كثيرة من أهمها الخواص الثلاث الآتية :

١ ــ أنها تتمثل فى نظم عامة يشترك فى اتباعها أفراد مجتمع ما ، ويتخذونها أساساً لتنظيم حياتهم الجمعية ، وتنسيق العلاقات التى تربطهم بعضهم ببعض والتى تربطهم بغيرهم .

٢ ــ أنها ليست من صنع الأفراد ، وإنما تخلقها طبيعة الاجتماع ، وتنبعث من تلقاء نفسها عن حياة الجماعات ، ومقتضيات العمران . وهذا هو ما يعنيه علماء الاجتماع إذ يقررون أنها من « نتاج العقل الجمعى » .

٣ ــ أن خروج الفرد على أى نظام منها يلقى من المجتمع مقاومة تأخذه بعقاب مادى أو أدبى ، أو تلغى عمله وتعتبره كأنه لم يكن ، أو تحول بينه وبين ما يبتغيه من وراء مخالفته وتجعل أعماله ضربا من ضروب العبث العقيم ، أو تسلط عليه أكثر من جزاء واحد من هذه الجزاءات(١) .

(١) يرجع الفضل فى إبراز هذه الخواص وتوضيحها إلى العلامة دوركايم فى كتابه : « قواعد المنهج الاجتماعى » Durkheim; Les Règles de la Méthode Sociologique .

وهذه الخواص الثلاث تتوافر فى اللغة على أكمل ما يكون :

فاللغة فى كل مجتمع نظام عام يشترك الأفراد فى اتباعه ، ويتخذونه أساساً للتعبير عما يجول بخواطرهم ، وفى تفاهمهم بعضهم مع بعض .

واللغة ليست من الأمور التى يصنعها فرد معين أو أفراد معينون ، وإنما تخلقها طبيعة الاجتماع ، وتنبعث عن الحياة الجمعية ، وما تقتضيه هذه الحياة من تعبير عن الخواطر ، وتبادل للأفكار . وكل فرد منا ينشأ فيجد بين يديه نظاما لغويا يسير عليه مجتمعه ، فيتلقاه عنه تلقياً بطريق التعلم والمحاكاة ، كما يتلقى عنه سائر النظم الاجتماعية الأخرى ، ويصب أصواته فى قوالبه ، ويحتذيه فى تفاهمه وتعبيره .

واللغة من الأمور التى يرى كل فرد نفسه مضطراً إلى الخضوع لما ترسمه . وكل خروج على نظامها ، ولو كان عن خطأ أو جهل ، يلقى من المجتمع مقاومة تكفل رد الأمور إلى نصابها الصحيح ، وتأخذ المخالف ببعض أنواع الجزاء . فإذا أخطأ فرد فى نطق كلمة ما ، أو استخدامها فى غير مدلولها ، أو خرج فى تركيب عبارته عن القواعد التى ترسمها لغته ، كان حديثه موضع سخرية وازدراء من مستمعيه ، ورموه بالغفلة والجهل ، وقد يحول ذلك دون فهمهم لما يريد التعبير عنه . وليس هذا مقصوراً على الخطأ الذى يسع الناطق إصلاحه ، بل إن الخطأ الذى لا يمكنه إصلاحه ، لنشأته مثلا عن خلل طبيعي فى أعضاء النطق ، قد يثير هو نفسه لدى السامعين بعض ما يثيره غيره من الأخطاء ، ويجر على صاحبه بعض آلام ومتاعب فى تعبيره وتفاهمه[1] . وإذا حاول فرد أن يخرج كل الخروج على النظام اللغوى ، بأن يخترع لنفسه لغة يتفاهم بها ، فإن عمله هذا يصبح ضرباً من ضروب العبث العقيم ، إذ لن يجد من يفهم حديثه ، ولن يستطيع إلى نشر مخترعه هذا سبيلاً .

---

(١) من طريف ما يروى فى هذا الصدد أن بعض خطباء العرب المصابين باللثغة كانوا يرهقون أنفسهم عسراً من أمرهم فى إعداد خطبهم حتى لا يبدو فيها أثر للثغتهم ، فكانوا يحرصون على ألا تشتمل أية كلمة منها على الصوت الذى لا يقوى لسانهم على النطق به من مخرجه الصحيح .

يروى ذلك عن واصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال الذى كان لا يحسن نطق الراء ، فكان يتجنبه فى مهارة وحذق فى جميع الكلمات التى تشتمل عليه (انظر البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٨) .

فاللغة إذن ظاهرة اجتماعية . وهى بوصفها هذا تؤلف موضوعاً من موضوعات علم الاجتماع(١) . وسندرسها فى هذا الكتاب على منهج هذا العلم ومن وجهة نظره وأغراضه .

ودراسة أية ظاهرة اجتماعية على منهج علم الاجتماع ومن وجهة نظره وأغراضه تقتضى على الأخص توضيح حقيقتين هامتين :

إحداهما : القوانين التى تخضع لها هذه الظاهرة فى حياتها وتطورها وما يعتورها من شئون .

والأخرى : مبلغ تأثرها بما عداها من الظواهر الاجتماعية الأخرى .

وهاتان الحقيقتان هما اللتان سنعنى بتوضيحهما فى هذا الكتاب . وسنوضحهما على ضوء دراستنا لثلاث موضوعات يتمثل فيها أهم ما يعتور اللغة فى حياتها ، وهى : تطور اللغة ؛ وصراع اللغات بعضها مع بعض ؛ وتفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات .

وسوف يظهر لنا من دراستنا لهذه الموضوعات الثلاثة أن اللغة ـــ شأنها فى ذلك شأن النظم الاجتماعية الأخرى ـــ لا تسير تبعاً للأهواء والمصادفات ، ولا وفقاً لإرادة الأفراد ؛ وإنما تخضع فى سيرها لقوانين ثابتة مطردة ، لا يد لأحد على وقف عملها أو تغيير ما تؤدى إليه . وهذه هى أولى الحقيقتين اللتين يدور حولهما محور بحثنا فى هذا الكتاب .

وسوف يظهر لنا كذلك من دراستنا لهذه الموضوعات الثلاثة أن اللغة ـــ شأنها فى ذلك شأن النظم الاجتماعية الأخرى ـــ ترتبط ارتباطاً وثيقاً بما عداها من

---

(١) أنشأ علماء الاجتماع لدراسة اللغة ، بوصفها هذا ، فرعاً هاماً من فروع علمهم سموه « علم الاجتماع اللغوى » أو « السوسيولوجيا اللغوية » .

وقد تضافر على النهوض بهذا الفرع أعضاء المدرسة الاجتماعية الفرنسية التى أنشأها العلامة دوركايم Durkheim فى أوائل القرن الحاضر وطائفة من أئمة علماء اللغة انضمت إلى هذه المدرسة واعتنقت مذهبها ، ومن أشهرهم الأساتذة دوسوسور ومييه وفندريس De Saussure; Meillet & Vendryes .

ظاهرات العمران ، وأن أهم العوامل التى تؤثر فيها ترجع إلى هذه الظاهرات . وهذه هى ثانية الحقيقتين اللتين تتجه دراستنا إلى إبرازهما فى هذا الكتاب .

غير أنه سيظهر لنا كذلك أن اللغة قد تتأثر فى بعض نواحيها بظواهر غير اجتماعية كالظواهر الفيزيولوجية والنفسية والجغرافية ؛ وان كان أثر هذه الظواهر ليس شيئاً مذكوراً بجانب أثر الظواهر الاجتماعية الخالصة .

ولذلك سنعمل فى خاتمة الكتاب ، بعد أن نستخلص الحقيقتين السابقتين ، على تحرير الحقيقة الثانية منهما فى صورة تضع الأمور فى نصابها الصحيح ، وتبين فساد ما يذهب إليه بعض المتطرفين من علماء الاجتماع كالعلامة دو سوسور De Saussure ومن نحا نحوه إذ يقررون أن جميع المؤثرات فى ظواهر اللغة ترجع إلى مؤثرات اجتماعية .

فكتابنا يشتمل إذن على ثلاثة فصول وخاتمة :

الفصل الأول فى تطور اللغة ؛

والفصل الثانى فى صراع اللغات بعضها مع بعض ؛

والفصل الثالث فى انشعاب اللغة الواحدة إلى عدة لهجات ولغات ؛ .

وتتضمن الخاتمة خلاصة ما تهدينا إليه دراستنا فى الفصول الثلاثة السابقة بصدد الحقيقتين اللتين ترمى بحوثنا إلى توضيحهما ، وهما : القوانين التى تسير عليها اللغة فى مختلف مظاهر حياتها ؛ ومبلغ تأثرها بالظواهر الاجتماعية الأخرى .

الدكتور على عبد الواحد وافى

الفصل الأول

تطور اللغة

تتأثر اللغة فى تطورها بعوامل كثيرة يرجع أهمها إلى ست طوائف :

إحداها : عوامل اجتماعية خالصة تتمثل فى حضارة الأمة ، ونظمها ، وعاداتها ، وتقاليدها ، وعقائدها ، ومظاهر نشاطها العملى والعقلى ، وثقافتها العامة ، واتجاهاتها الفكرية ، ومناحى وجدانها ونزوعها ... وهلم جرا ؛

وثانيتها : تأثر اللغة بلغات أخرى ؛

وثالثتها : عوامل أدبية تتمثل فيما تنتجه قرائح الناطقين باللغة ، وما تبذله معاهد التعليم والمجامع اللغوية وما إليها فى سبيل حمايتها والارتقاء بها ؛

ورابعتها : انتقال اللغة من السلف إلى الخلف ؛

وخامستها : عوامل طبيعية تتمثل فى الظواهر الجغرافية والفيزيولوجية .. وما إليها .

وسادستها : عوامل لغوية ترجع إلى طبيعة اللغة نفسها وطبيعة أصواتها وقواعدها ومتنها .. وهلم جرا . وذلك أن عناصر اللغة نفسها قد تنطوى على بعض نواح تؤثر فى تطورها .

وسنقف على كل طائفة من هذه الطوائف الست فقرة خاصة ؛ ثم نختم الفصل بفقرة سابعة نستخلص فيها ما تهدينا إليه هذه الدراسة بصدد قوانين التطور اللغوى وأثر الظواهر الاجتماعية فى سيره[1] .

(١) سنقتصر فى جميع فقرات هذا الفصل على ما يتعلق بالتطور اللغوى العام . أما التطور الناشىء عن صراع اللغات بعضها مع بعض أو عن انشعابها فسيكون موضوع الفصلين الثانى والثالث من هذا الكتاب .

(١)
أثر العوامل الاجتماعية في خصائص اللغة وتطورها

تتأثر اللغة أيما تأثر بحضارة الأمة ، ونظمها ، وتقاليدها ، وعقائدها ، واتجاهاتها العقلية ، ودرجة ثقافتها ، ونظرها إلى الحياة ، وشئونها الاجتماعية العامة .. وما إلى ذلك. فكل تطور يحدث فى ناحية من هذه النواحى يتردد صداه فى أداة التعبير . ولذلك تعد اللغات أصدق سجل لتاريخ الشعوب . فبالوقوف على المراحل التى اجتازتها لغة ما ، وفى ضوء خصائصها فى كل مرحلة منها ، يمكن استخلاص الأدوار التى مر بها أهلها فى مختلف مظاهر حياتهم .

فكلما اتسعت حضارة الأمة ، وكثرت حاجاتها ومرافق حياتها ، ورقى تفكيرها ، وتهذبت اتجاهاتها النفسية ، نهضت لغتها ،وسمت أساليبها ، وتعددت فيها فنون القول ، ودقت معانى مفرداتها القديمة ، ودخلت فيها مفردات أخرى عن طريق الوضع والاشتقاق والاقتباس للتعبير عن المسميات والأفكار الجديدة ... وهلم جرا . واللغة العربية أصدق شاهد على ما نقول . فقد كان لانتقال العرب من همجية الجاهلية إلى حضارة الإسلام ، ومن النطاق العربى الضيق التى امتازت به مدنيتهم فى عصر بنى أمية إلى الأفق العالمى الواسع الذى تحولوا إليه فى عصر بنى العباس ، كان لهذين الانتقالين أجلُّ أثر فى نهضة لغتهم ورقى أساليبها واتساعها لمختلف فنون الأدب وشتى مسائل العلوم .

وانتقال الأمة من البداوة إلى الحضارة يهذب لغتها ، ويسمو بأساليبها ويوسع نطاقها ، ويزيل ما عسى أن يكون بها من خشونة ، ويكسبها مرونة فى التعبير والدلالة . وإن موازنة بين حالة اللغة العربية فى عهد بداوة العرب قبل الإسلام وحالتها

فى عهد حضارتهم الإسلامية ، أو بين ما كانت عليه عند أهل البادية فى عصر ما وما كانت عليه فى الحضر فى نفس هذا العصر ، لأصدق برهان على ذلك . وإن البدوى الذى لم يلهمه شيطانه فى مدحه للأمير أحسن من قوله :

أنت كالكلب فى حفاظك للعهـ ـد وكالتيس فى قراع الخطوب

قد استطاعت قريحته ، بعد أن هذبتها حضارة بغداد ، أن تجود بمثل قوله :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

ومظاهر النشاط الاقتصادى تطبع اللغة كذلك بطابع خاص فى مفرداتها ومعانيها وأساليبها وتراكيبها . ومن ثم اختلفت مظاهر اللغة فى الأمم والمناطق تبعاً لاختلافها فى نوع الإنتاج ، ونظم الاقتصاد ، وشئون الحياة المادية ، والمهنة السائدة (الزراعة ، والصناعة ، التجارة ، الصيد ، رعى الأنعام ... الخ) . وقد تؤثر هذه المظاهر فى أصوات اللغة نفسها . فقد يؤدى نوع العمل الذى يزاوله سكان منطقة ما إلى تشكيل أعضاء نطقهم فى صورة خاصة تتأثر بها مخارج الحروف ونبرات الألفاظ ومناهج التطور الصوتى .

واللغة مرآة ينعكس فيها كذلك ما يسير عليه الناطقون بها فى شئونهم الاجتماعية العامة . فعقائد الأمة وتقاليدها ، وما تخضع له من مبادىء فى نواحى السياسة والتشريع والقضاء والأخلاق والتربية وحياة الأسرة . وميلها إلى الحرب أو جنوحها إلى السلم ، وما تعتنقه من نظم بصدد الموسيقى والنحت والرسم والتصوير والعمارة وسائر أنواع الفنون الجميلة ... كل ذلك وما إليه يصبغ اللغة بصبغة خاصة فى جميع مظاهرها : فى الأصوات والمفردات والدلالة والقواعد والأساليب ... وهلم جرا[1] . وإليك مثلا درجة القرابة التى تربط الفرد بكل من أسرة أبيه وأسرة أمه . فإن الأمم التى تسير نظمها الاجتماعية على إنزال هاتين الأسرتين

---

(١) من أجل البحوث فى هذا الموضوع وما يتصل به ما كتبه العلامة « فانييه » فى المجلد الثانى من مجلة « التربية » سنة ١٩٠٧ ص ٤٣٤ : ٤٦٣ ، تحت عنوان « روح الأمة وطباعها ممثلة فى لغتها : V. Vannier L'Esprit et les Moeurs d'une nation d'après sa langue (Revue Pédagogique 1907. T.2 p.p. 434:463) .

منزلة واحدة تقريبا فى درجة قرابتهما للفرد تطلق لغتها كلمة واحدة على كل من العم والخال oncle, uncle والعمة والخالة tant, aunt وابن العم أو العمة وابن الخال أو الخالة cousin وابنة العم أو العمة وابنة الخال أو الخالة cousine ؛ على حين أن الأمم التى تفرق نظمها الاجتماعية بين هاتين الأسرتين فى درجة قرابتهما للفرد تختلف فى لغتها الكلمات الدالة على أفراد أسرة الأب عن الكلمات الدالة على أفراد أسرة الأم : العم ، الخال ، العمة ، الخالة ، ابن العم ، ابن العمة ، ابن الخال ، ابن الخالة ، بنت العم ، بنت العمة ، بنت الخال ، بنت الخالة[1] ... وإليك مثلا آخر مبلغ اتجاه الأمة إلى مبادىء المساواة أو انحرافها نحو نظام الطبقات . فإن ما تسير عليه نظمها الاجتماعية بهذا الصدد يؤثر فى مختلف نواحى لغتها حتى فى ناحية القواعد . فمخاطبة المفرد بضمير الجمع تعظيما له : (أرجو أن تتفضلوا ...) ؛ وإجراء الخطاب فى صيغة الإخبار عن الغائب : (يتفضل سيدى ...) ، كل ذلك وما إليه من أساليب التبجيل لا يبدو فى اللغة إلا حيث ينحرف الناس عن مبادىء المساواة وتكثر الفوارق بين الطبقات . ولذلك يعد تطور هذه الضمائر فى أمة ما أصدق سجل لتطور اتجاهاتها فى هذه الشئون .

فالصراع فى اللغة الفرنسية بين "tu" (أنت) و "vous" (أنتم) ، فى مخاطبة المفرد ، يمثل أصدق تمثيل مراحل الصراع بين روح المساواة ونظام الطبقات فى الشعب الفرنسى . فقد كانت الغلبة للضمير الأول فى العصور التى سادت فيها مبادىء المساواة ، وللضمير الثانى فى العصور التى وهنت فيها هذه المبادىء . ومثل هذا يقال فى اللغة العربية . فقد كان العرب فى جاهليتهم من أكثر الشعوب ميلا إلى المساواة بين الأفراد ؛ ولذلك ساد فى خطابهم ضمير المفرد ، ولم تبد فى لغتهم المبالغة فى التبجيل . وقد سار القرآن على هذه الطريقة حتى فى توجيه الخطاب إلى الله عز وجل . ولكنهم لم يلبثوا بعد اتساع ملكهم ، واحتكاكهم بالأمم الأخرى ، وانغماسهم فى الترف ، ومحاكاتهم لأبهة الفرس وأساليبهم فى الحياة ، واتجاه خاصتهم وأغنيائهم إلى الترفع عن الدهماء وطبقات المستضعفين ، لم يلبثوا بعد هذا أن انحرفوا عن مبادئهم الأولى ، فانحرفت معهم أساليب لغتهم ، وساد فيها خطاب المفرد بضمير الجمع

(١) انظر كتابنا « الأسرة والمجتمع » الطبعة السادسة ص ٢٧ ، ٢٨ .

وإجراء الخطاب فى صيغة الإخبار عن الغائب ، ونفذت إليها ألفاظ « الحضرة » والجناب » ... وما إلى ذلك .

واختلاف الطبقات فى بعض الأمم ، وما يفصلها من فوارق فى مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، كل ذلك يؤدى إلى التمييز بينها فى المفردات التى تطلق على شئون كل طبقة منها . وإليك مثلا المفردات التى تطلق على أنواع الدخل والأجور ، فإن مبلغ الاختلاف بين هذه المفردات فى أمة ما ليسجل مبلغ الاختلاف بين طبقات هذه الأمة فى مستوى الحياة ، وإن الأصل اللغوى الذى يرجع إليه كل مفرد منها ليشير فى صورة ما إلى عمل الطبقة التى يطلق على دخلها وإلى نشاطها الاقتصادى ، ومنزلتها فى سلم الطبقات . ففى اللغة الفرنسية مثلا يطلق لفظ خاص على كل من دخل المسكين ، والخادم ، وعامل اليومية ، والعامل الدائم ، والممثل ، والصحفى ، والقسيس ، والجندى ، والضابط ، والموظف غير الحكومى ، والموظف الحكومى ، وصاحب المهنة الحرة كالطبيب والمحامى والمالك الزراعى ومن إليه ، والمساهم فى شركة ما ، والنائب البرلمانى .. وهلم جرا . وكل مفرد من هذه المفردات يشير أصله اللغوى فى صورة ما إلى عمل الطبقة التى يطلق على دخلها ، وإلى نشاطها الاقتصادى ، ومنزلتها بالقياس لما عداها من الطبقات :

Les secours d'un indigent; les gages d'une domestique; la pay d'un Journaliste; le salaire d'un ouvrier; les feux d'un acteur; les mensualités d'un Journalier; le cusuele d'un curé; le prêt d'un sodat; le solde d'un officier; les appointements d'un employé; le traitement d'un fonctionnaire; les honoraires d'un médccin on d'un avocat; les rentes d'un rentier; les dividendes d'un actionnaire; l'indemnité d'un parlementaire... etc.

وكثيراً ما ينجم عن اختلاف الناس وفئاتهم اختلاف مدلول الكلمات وخروجها عن معانيها الأولى . ويؤدى إلى ذلك ما يوجد بين الجماعات الناطقة باللغة الواحدة من فروق فى الخواص النفسية ، وفى شئون السياسة ، والاجتماع ، والثقافة ، والتربية ، ومناحى التفكير والوجدان ، ومستوى المعيشة ، وحياة الأسرة، والتقاليد والعادات ... وما تزاوله كل طبقة من أعمال ، وتضطلع به من وظائف والآثار العميقة التى تتركها كل وظيفة ومهنة فى عقلية المشتغلين بها ، وحاجة أفراد كل طبقة

إلى دقة التعبير وسرعته وإنشاء مصطلحات خاصة بصدد الأمور التى يكثر ورودها فى حياتهم وتستأثر بقسط كبير من انتباههم ، وما يلجئون إليه من استخدام مفردات فى غير ما وضعت له أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعتهم وأعمالهم ... وهلم جرا . فمن الواضح أن هذه الأمور وما إليها من شأنها أن تخرج بالكلمات عن مدلولاتها الأولى ، وتوجه معانيها فى كل طبقة وفى كل جماعة وجهة مختلفة تختلف عن وجهتها عند غيرها .

وتتشكل اللغة كذلك بالشكل الذى يتفق مع اتجاهات الأمة العامة ومطامحها ونظرها إلى الحياة . فاتجاه الانجليز مثلا إلى الناحية العملية قد صبغ لغتهم بصبغة مادية فى مفرداتها وتراكيبها ؛ حتى إنه ليقال فيها : « دفع زيادة أو تحية أو شكراً أو انتباهاً » و « أنفق وقته فى كيت وكيت » و « تربح الساعة أو تخسر »
"To pay visit, compliments, attention.." "How can I pay you for all your goods" "He spent his time in.." "The watch gains or loses".

بدلا من «أدى زيادة» و « قدم تحية أو شكراً » و « أبدى انتباهاً » و « قضى وقته فى عمل ما » و « الساعة تقدم أو تؤخر » .

وما يكون عليه الأفراد من حشمة وأدب فى شئونهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض ينبعث كذلك صداه فى لغتهم ألفاظها وتراكيبها . فاللغة اللاتينية لا تستحيي أن تعبر عن العورات والأمور المستهجنة والأعمال الواجب سترها بعبارات مكشوفة ، ولا أن تسميها بأسمائها الصريحة ؛ على حين أن اللغة العربية بعد الإسلام تتلمس أحسن الحيل وأدناها إلى الحشمة والأدب فى التعبير عن هذه الشئون ، فتلجأ إلى المجاز فى اللفظ ، وتستبدل الكناية بصريح القول : القبل ، الدبر ، قارب النساء ، لمس امرأته ، قضى حاجته .. إلخ . ولقد كان لها بهذا الصدد فى ألفاظ القرآن الكريم وعباراته أسوة حسنة : « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » ؛ « واهجروهن فى المضاجع » ؛ « لامستم النساء » ؛ « وقد أفضى بعضكم إلى بعض » ؛ « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » ؛ « فاعتزلوا النساء فى المحيض » ؛ « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » .. وما إلى ذلك من كريم العبارات ونبيل الألفاظ .

وما يبدو فى اللغة العربية بهذا الصدد يبدو مثله فى اللغات الأوروبية الحديثة وخاصة الشمالية منها . وأكثرها تحرجاً فى هذه الناحية اللغة الانجليزية . فالبطن مثلا لا يعبر عنه فى لغة التخاطب الانجليزية باسمه الصريح بل يطلق عليه فى الغالب the stomach (أى المعدة)[١] ؛ وسراويل الرجل تطلق عليها أحياناً كلمة معناها الأصلى « ما لا يمكن التعبير عنه : Inexpressible »[٢] ، وسراويل المرأة يطلق عليها كلمة معناها الأصلى « الجمع أو التركيب Combination »[٣] .. وهلم جرا .

وخصائص الأمة العقلية ، ومميزاتها فى الادراك والوجدان والنزوع ، ومدى ثقافتها ، ومستوى تفكيرها ومنهجه ، وتفسيرها لظواهر الكون وفهمها لما وراء الطبيعة .. كل ذلك وما إليه ينبعث كذلك صداه فى لغتها[٤] . ففى الأمم البدائية الضعيفة التفكير ، المنحطة المدارك ، تغزر الكلمات الدالة على المحسات والأمور الجزئية ، وتنعدم أو تقل الألفاظ الدالة على المعانى الكية ، وتخلو دلالة المفردات من الدقة والضبط ، فيكثر فيها الخلط واللبس والابهام ، وتعرو القواعد أو تكاد تعرو من ظواهر التصريف والاشتقاق وربط عناصر الجملة والعبارة بعضها ببعض ، ويضيق متن اللغة فلا يتسع لأكثر من ضروريات الحياة . ومن هذا القبيل الشعوب الصينية : فلغاتها أولية ساذجة فى نواحى الألفاظ والدلالة والقواعد ؛ تكفى للتعبير عن ضروريات الحياة وشئون الصناعة اليدوية والأدب السهل والتأمل الضحل ، ولكنها لا تتسع لعلم ولا لفلسفة ولا لدين بالمعنى الصحيح لهذه الكلمات ، حتى إنه لا يوجد فيها اسم للاله ، ويعبر فيها عن مسائل ما وراء الطبيعة بعبارات ملتوية مبهمة مضطربة الدلالة فى أذهان أهلها أنفسهم . وفى كثير من الأمم البدائية ينعكس فى اللغة من مظاهر الأضطراب والابهام ما تمتاز به عقليات الناطقين بها من سذاجة

---

(١) تختصر هذه الكلمة عادة فى اللغة الدارجة فيقال tummy .

(٢) يطلق عليها غالباً فى اللغة الدارجة كلمة Pants وهى اختصار كلمة « بنطالون » .

(٣) تطلق هذه الكلمة على لباس مؤلف من السراويل والقميص ؛ أما السراويل وحدها فيطلق عليها أحياناً كلمة Bloomer وهو اسم سيدة أمريكية Mrs. Bloomer اخترعت طرازاً فنسب إليها (وكان يحتوى على جاكتة وقميص وسراويل ، ثم قصر استعمال الكلمة فيما بعد على السراويل) ؛ وأحياناً كلمة Knickers وهى اختصار كلمة Knickerboker (وهذه الكلمة كانت فى الأصل اسماً لشخصية روائية ألبسها المؤلف طرازاً خاصاً من السراويل ، ثم شاع استعمالها فيما بعد فى سراويل السيدات) .

(٤) V. Vanuier Op. cit. .

وقصور ، حتى إنها لا تكاد وحدها تبين عن معنى واضح دقيق ، وحتى إن أهلها أنفسهم ليضطرون فى أثناء حديثهم إلى الاستعانة بالحركات اليدوية والجسمية لتكملة ما ينقص تعبيرهم وما يعوزه من دلالة . فقد روى عن قبائل البوشيمان Bochimans (عشائر بدائية تسكن جنوب أفريقية) أنهم إذا أرادوا المحادثة ليلا يضطرون إلى إشعال النار ليتمكنوا من رؤية الاشارات اليدوية والجسمية التى تصحب كلامهم فتكمل ناقصه وتوضح مدلولاته(١) . ويقرر علماء الاتنوجرافيا الذين عنوا بدراسة السكان الأصليين بأمريكا وأستراليا وأفريقية أن عقليات هذه الشعوب لا تكاد تدرك المعانى الكلية فى كثير من مظاهرها ، وأن هذا القصور العقلى كان له صدى كبير فى لغاتهم ، فلا نكاد نجد فى كثير منها لفظاً يدل على معنى كلى . ففى لغة الهنود الحمر مثلا يوجد لفظ للدلالة على شجرة البلوط الحمراء ، وآخر للدلالة على شجرة البلوط السوداء ... وهكذا ؛ ولكن لايوجد أى لفظ للدلالة على الشجرة على العموم(٢). وفى لغة الهيرونيين Hurons (من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) يوجد لكل حالة من حالات الفعل المتعدى لفظ خاص بها ، ولكن لايوجد للفعل نفسه لفظ يدل عليه . فيوجد لفظ للتعبير عن الأكل فى حالة تعلقه بالخبز ؛ ولفظ آخر للتعبير عنه فى حالة تعلقه باللحم ؛ وثالث فى حالة تعلقه بالزبد ؛ ورابع فى حالة تعلقه بالموز .. وهكذا؛ ولكن لايوجد فعل ولامصدر للدلالة على الأكل على العموم أو الأكل فى زمن ما(٣) . ولغة السكان الأصليين لجزيرة تسمانيا Tasmanie (بقرب استراليا) لا يوجد بين مفرداتها لفظ يدل على الصفة ؛ فإذا أرادوا وصف شيء لجأوا إلى تشبيهه بآخر مشتمل على الصفة المقصودة ؛ فيقولون مثلا : « فلان كشجرة كذا » إذا أرادو وصفه بالطول(٤) .

وعلى العكس من ذلك الشعوب الهندية ــ الأوربية حيث ينشط التفكير ويعمق الادراك ، ويدق البحث ، وتتجه العقول إلى التأمل الفلسفى ؛ وتميل إلى تفسير ظواهر الكون والمجتمع الانسانى تفسيراً علمياً يربطها بأسبابها وقوانينها العامة . ففى مثل هذه الشعوب تكثر فى اللغات الألفاظ الدالة على المعانى الكلية ،

(١) انظر ريبو : تطور المعانى الكلية ص ٧٨ Ribot : L'Evolution des Idées Générales .

(٢) Ibid 110 (٣) Ibid. 173-174 (٤) Ibid. 204 et suiv. .

والتراكيب المعبرة عن الحقائق العامة ، وتغزر أزمنة الأفعال(١) ، وتطول الجمل وتتعدد أجزاؤها ، وتتنوع الروابط وتختلف دلالاتها ؛ فتتسع للتعبير عن دقيق الوجدان ، وعميق الادراك ، وحقائق الفلسفة والعلوم .

ويتطور مدلول الكلمة فى لغة ما تبعاً لتطور الشئون الاجتماعية المحيطة بهذا المدلول . فكل تطور من هذا القبيل يتجه بمدلول الكلمة وجهة خاصة ، وينحرف به قليلا أو كثيراً عن أوضاعه الأولى . والأمثلة على ذلك تجل عن الحصر فى اللغة العربية وفى غيرها من اللغات . فكلمة « القطار » مثلا كانت تطلق فى الأصل على عدد من الابل على نسق واحد تستخدم فى السفر وفى النقل ؛ ولكن تغير الآن مدلولها الأصلى تبعاً لتطور وسائل المواصلات ، فأصبحت تطلق على مجموعة عربات تقطرها قاطرة بخارية . وكلمة « البريد » كانت تطلق على الدابة التى تحمل عليها الرسائل ؛ ثم تغير الآن مدلولها تبعاً لتطور الطرق المستخدمة فى إيصال الرسائل ، فأصبحت تطلق على النظم والوسائل المتخذة لهذه الغاية فى العصر الحاضر . وكلمة الريشة Plume كانت تطلق على آلة الكتابة أيام كانت تتخذ من ريش الطيور ؛ ولكن تغير الآن مدلولها الأصلى تبعاً لتغير المادة المتخذة منها آلة الكتابة ، فأصبحت تطلق على قطعة من الحديد مشكلة فى صورة خاصة . وعبارة « بنى الرجل على امرأته » كانت تستخدم كناية عن دخوله بها ، لأن الشاب البدوى كان إذا تزوج يبنى له ولأهله خباء جديدا ؛ ولكنها فقدت الآن معناها الأصلى لانقراض هذا النظام ، وإن كانت لاتزل تستخدم كناية عن الزفاف . وقد جرت العادة فى بعض العصور بفرنسا أن يقضى المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة مدة عقوبتهم فى أعمال التجديف على ظهر السفن الملكية ؛ ومن ثم جاءت عبارة Envoyer aux galères ، وجاء وصف garlérien ؛ ولكن تغير الآن مدلولها تبعاً لتغير النظم المتصلة بهذه العقوبة ونوعها .

وكثرة استخدام الكلمة فى مدلول ما ، لحدوث ما يدعو إلى ذلك فى شئون

---

(١) ليس للفعل فى معظم اللغات السامية إلا زمنان : فعل انتهى زمنه (ماض) وفعل لم ينته زمنه (أمر ومضارع للحال أو للاستقبال) ، على حين أن له فى اللغات الهندية ــ الأوربية أزمنة كثيرة لكل منها صيغة خاصة . وقد بلغت هذه الأزمنة فى اللغة الفرنسية أحد عشر زمناً فى الجمل الاخبارية وحدها .

الحياة الاجتماعية وما يتصل بها ، يجردها ـــ مع تقادم العهد ـــ من مدلولها الأصلى ويقصرها على الناحية التى كثر فيها استخدامها .

فكثرة استخدام العام مثلا فى بعض ما يدل عليه ، لسبب اجتماعى ما ، يزيل مع تقادم العهد عموم معناه ، ويقصر مدلوله على الحالات التى شاع فيها استعماله . ولدينا فى اللغة العربية وحدها آلاف من أمثلة هذا النوع ، فمن ذلك جميع المفردات التى كانت عامة المدلول ثم شاع استعمالها فى الاسلام فى معان خاصة تتعلق بالعقائد أو الشعائر أو النظم الدينية : كالصلاة والحج والصوم والمؤمن والكافر والمنافق والركوع والسجود .. وهلم جرا .

فالصلاة مثلا معناها فى الأصل الدعاء[1] ثم شاع استعمالها فى الاسلام فى العبادة المعروفة لاشتمالها على مظهر من مظاهر الدعاء ، حتى أصبحت لا تنصرف عند إطلاقها إلى غير هذا المعنى . والحج معناه فى الأصل قصد الشيء والاتجاه إليه ، ثم شاع استعماله فى قصد البيت الحرام ، حتى أصبح مدلوله الحقيقى مقصوراً على هذه الشعيرة .. وقس على ذلك جميع أفراد هذه الطائفة . ومن ذلك أيضاً كلمة « الرث » ، فقد كانت تطلق على الخسيس من كل شيء ، ثم قصر مدلولها على الخسيس مما يفرش أو يلبس لكثرة استخدامها فى هاتين الطائفتين ؛ وكلمة « المدام » فهى فى الأصل كل ما سكن ودام ، ثم شاع استعمالها فى الخمر لدوامها فى الدن أو لأنه يغلى عليها حتى تسكن ، فأصبحت لا تنصرف إلى غير هذا المعنى .

وكثرة استخدام الخاص فى معان عامة عن طريق التوسع لسبب اجتماعى ما تزيل مع تقادم العهد خصوص معناه وتكسبه العموم . فمن ذلك فى اللغة العربية كلمات : البأس والورد والرائد والنجعة .. وهلم جرا . فالبأس فى الأصل الحرب ، ثم كثر استخدامه فى كل شدة فاكتسب من هذا الاستخدام عموم معناه ؛ وأصل الورد إتيان الماء وحده ، ثم صار إتيان كل شيء ورداً لكثر استخدامه فى هذا المعنى العام ؛ والرائد فى الأصل طالب الكلأ ثم صار طالب كل حاجة رائداً ؛ والنجعة فى الأصل

---

(١)وقد جاء على الأصل قوله تعالى : « وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » .

طلب الغيث ، ثم عممت فى الاستخدام فأصبح كل طلب انتجاعا . ومن ذلك فى اللغة الفرنسية كلمة salaire فقد كان معناها فى الأصل ــ كما تدل على ذلك بنيتها ــ ما يصرف للجندى من نقود فى نظير ما يحتاج إليه من ملح الطعام ، ثم شاع استعمالها فى كل أجرة حتى نسى معناها الأصلى ؛ وكلمة arriver فقد كانت تدل فى الأصل ــ كما تشير إلى ذلك بنيتها ــ على الوصول إلى الشاطىء ، ثم شاع استعمالها فى كل وصول ، فاستقر معناها على هذا الوضع العام .

وكثرة استخدام الكلمة فى معنى مجازى لسبب اجتماعى ما يؤدى غالباً إلى انقراض معناها الحقيقى وحلول هذا المعنى المجازى محله . فمن ذلك مثلا فى اللغة العربية كلمات المجد والأفن والوغى والغفران والعقيقة .. وهلم جرا . فالمجد معناه فى الأصل امتلاء بطن الدابة من العلف ، ثم كثر استخدامه مجازاً فى الامتلاء بالكرم حتى انقرض معناه الأصلى وأصبح حقيقة فى هذا المعنى المجازى ؛ ولهذا السبب نفسه انتقل معنى « الأفن » من قلة لبن الناقة إلى نقص العقل ؛ وانتقل معنى « الوغى » من اختلاط الأصوات فى الحرب إلى الحرب نفسها ؛ ومعنى « الغفر » و « الغفران » من الستر إلى الصفح عن الذنوب ؛ ومعنى « العقيقة » من الشعر الذى يخرج على الولد من بطن أمه إلى ما يذبح عند حلق ذلك الشعر .

وكثرة استخدام الكلمة فى العبارات المنفية ينزع عنها معناها الأصلى ويكسبها معنى العموم والاطلاق ، فتصبح أشبه شىء بأداة من أدوات النفى : فمن ذلك فى اللغة العربية كلمات أحد وديار وقط وأبداً .. وما إليها ، وفى اللغة الفرنسية كلمات pas; rien; personne.. etc.

واستخدام الكلمة فى فن ما بمعنى خاص يجردها فى هذا الفن من معناها اللغوى ويقصرها على مدلولها الاصطلاحى . ويدخل فى هذا مصطلحات الآداب والفلسفة والقانون والاجتماع والعلوم والفنون ... وما إلى ذلك . ومن ثم نرى أن الكلمة الواحدة تستعمل فى الشعر بمعنى ، وفى الرسائل بمعنى آخر ، وفى السياسة بمعنى ثالث ، وفى القانون بمعنى رابع ، وفى الفنون الحربية بمعنى خامس ، وفى الطبيعة بمعنى سادس ، وفى الطب بمعنى سابع ... وهلم جرا .

وإلى مقتضيات الحياة الاجتماعية وشئونها ترجع كذلك أهم الأسباب فى نشأة كلمات لم تكن موجودة فى اللغة من قبل ، وفى هجر كلمات كانت مستخدمة فيها أو انقراضها انقراضاً تاماً . فأهم العوامل التى تدعو إلى نشأة كلمات فى اللغة ترجع إلى مقتضيات الحاجة إلى تسمية مستحدث اجتماعى جديد : نظام حديث فى الشئون الاجتماعية أو الاقتصادية أو غيرها ؛ نظرية جديدة علمية أو فلسفية ؛ مخترع مادى جديد .. وهلم جرا . وأهم العوامل التى تؤدى إلى انقراض كلمة من الاستعمال ترجع إلى انقراض مدلولها نفسه من نطاق الحياة الاجتماعية أو إلى عدم استخدامه . ويصدق هذا على الملابس والأثاث وعدد الحرب ووسائل النقل وآلات الصناعة والمقاييس والنقود ومظاهر النشاط والنظم الاجتماعية التى انقرضت أو بطل استخدامها فانقرضت معها المفردات الدالة عليها . فقد انقرض فى العربية كثير من الكلمات الدالة على نظم جاهلية قضى عليها الاسلام ، كالمرباع والصرورة والنوافج(١) . وانقرض فى الفرنسية لهذا العامل وما يتصل به كلمات كثيرة منها :

veste, casaquin, cabas, carosse, soupentes, briquet, pacotille, corvette fiégate, brulot, boulet, arpent, écu, liard, toise... etc.(٢)

---

(١) المرباع : ربع الغنيمة ، كان رئيس القوم يأخذه لنفسه فى الجاهلية ؛ والصرورة : هو الذى يدع النكاح تبتلا ، أو الذى يحدث حدثاً ويلجأ إلى الحرم ؛ والنوافج : الابل تساق فى الصداق .

(٢) Dauzat, Philosohie du Langage, p.p. 228 et suiv.

(٢)
تأثر اللغة بلغات أخرى[١]

من المقرر أن أى احتكاك يحدث بين لغتين أو بين لهجتين — أياً كان سبب هذا الاحتكاك ، ومهما كانت درجته ، وكيفما كانت نتائجه الأخيرة — يؤدى لا محالة إلى تأثر كل منهما بالأخرى . وغنى عن البيان أنه من المتعذر أن تظل لغة ما بمأمن من الاحتكاك بلغة أخرى . ولذلك كانت كل لغة من لغات العالم عرضة للتطور المطرد عن هذا الطريق .

ولما كان الاحتكاك بين اللغات هو نتيجة لازمة للاحتكاك الاجتماعى بين الشعوب الناطقة بها ، كانت الدعائم التى يعتمد عليها التطور الناشىء عن هذا العامل لا تختلف فى شىء عن الدعائم التى يعتمد عليها التطور الناشىء عن العوامل المشار إليها فى الفقرة السابقة . فكلاهما يرجع إلى ظواهر الاجتماع وتدعو إليه مقتضيات العمران ، وكلاهما تنعكس فيه ناحية من نواحى الحياة الاجتماعية العامة ويتمثل فيه بعض مقومات المجتمع واتجاهاته وما يكتنفه من شئون . وكل ما بينهما من فرق أن عناصر التطور المشار إليها فى الفقرة السابقة هى عناصر داخلية خالصة ، على حين أن عناصر هذا التطور ترد إلى اللغة من الخارج .

ومن ثم يختلف ما تأخذه لغة عن أخرى باختلاف العلاقات التى تربط الشعبين وما يتاح لهما من فرص للاحتكاك المادى والثقافى . فكلما قويت العلاقات التى تربط أحدهما بالآخر ، وكثرت فرص احتكاكهما نشطت بينهما حركة التبادل اللغوى . ولذلك تبلغ هذه الحركة أقصى شدتها حينما يسكن الشعبان منطقة واحدة

(١) سنقصر كلامنا هنا على التأثر السطحى الذى يقف عند حد الاقتباس بين اللغات ، لأن التأثر العميق الذى ينشأ عن صراع جدى بين اللغات سيكون موضع الكلام عليه الفصل الثانى من هذا الكتاب .

أو منطقتين متجاورتين . فالانجليزية قد أخذت عن النورماندية أكثر مما أخذته عن أية لغة أخرى ؛ لأن الغزاة النورمانديين قد استقر بهم المقام فى نفس بلاد الانجليز المغلوبين . واللاتينية قد اقتبست من الاغريقية القديمة أكثر مما اقتبسته من أية لغة أخرى ؛ وذلك لتجاور منطقتيهما وشدة الامتزاج بين الشعبين الناطقين بهما . ولهذا السبب نفسه بلغت حركة التبادل اللغوى أقصى شدتها بين العربية والفارسية والتركية . وما اقتبسته ألمانية سويسرا من اللغة الفرنسية لا يذكر بجانبه ما اقتبسته ألمانية النمسا مثلا ؛ وذلك لأن القسم الألمانى اللغة فى سويسرا متاخم للقسم الفرنسى اللغة ولشدة الاحتكاك بين سكان القسمين ، على حين أن النمسا غير متاخمة لمنطقة فرنسية اللسان . وقد تسرب ألى لغة رومانيا عدد كبير من مفردات الشعبتين الصقلبية والمجرية ، على حين أن أخواتها اللاتينية الأصل (الفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية .. إلخ) لم تكد تتأثر بهذين اللسانين ؛ وذلك لأن رومانيا قد انعزلت عن أخواتها اللاتينية وأحاط بها من جميع جهاتها أمم صقلبية اللسان أو مجريته .

ومن ثم كذلك نرى أن المفردات التى تقتبسها لغة ما عن غيرها من اللغات يتصل معظمها بأمور قد اختص بها أهل تلك اللغات أو برزوا فيها أو امتازوا بانتاجها أو كثرة استخدامها وأخذها منهم أو اعتمد عليهم فيها أهل هذه اللغة . فمعظم ما انتقل إلى العربية من المفردات الفارسية واليونانية يتصل بنواح مادية أو فكرية امتاز بها الفرس واليونان وأخذها عنهم العرب(١) . ويتألف معظم المفردات

---

(١) من أشهر المفردات التى انتقلت إلى العربية من الفارسية : الكوز ، الابريق ، الطست ، الخوان ، الطبق ، السكرجة ، السمور — الخز ، الديباج ، السندس — الياقوت ، الفيروزج ، البلور — السميذ ، الكعك ، الفالوذج — الفلفل ، الكرويا ، القرفة ، الزنجبيل ، الخولنجان ، الدارصينى — النرجس ، البنفسج ، السوسن ، الياسمين ، الجلنار — المسك ، العنبر ، الكافور ، الصندل ، القرنفل ... الخ .

ومن أشهر ما أخذته العربية من اليونانية أسماء بعض آلات الرصد والجراحة وبعض مصطلحات الطب والفلسفة والمنطق والعلوم الطبيعية وغيرها ، وأخذت عنها كذلك أسماء بعض المعادن والوظائف والمنشآت المعمارية وغيرها وأدوات البناء والموازين والأمتعة .. الخ : كالقبرس (وهو أجود النحاس) ، والبطريق ، والقيطون (وهو البيت الشتوى) ، والقنطرة ، والفردوس (البستان) ، والقراميد (الآجر) ، والقسطاس (الميزان) ، والقنطار ، والبطاقة ، والسجنجل (المرآة) .. وهلم جرا .

انظر فى ذلك فقه اللغة للثعالبى ، الباب التاسع والعشرين ، وانظر كذلك المزهر للسيوطى الجزء الأول ، النوع التاسع عشر .

التى أخذتها الانجليزية عن النورماندية من كلمات دالة على معان كلية وألفاظ تتصل بشئون المائدة والطهى والطعام ؛ وذلك لأن النورمانديين كانوا يفوقون الانجليز كثيراً فى هاتين الناحيتين اللتين تمثل إحداهما مظهراً راقياً من مظاهر التفكير العام ، وتمثل الأخرى ناحية من نواحى الترف الاجتماعى ؛ فغزرت مفرداتهما فى لغتهم بينما قل ورودها فى لغة الانجليز القديمة . وإلى اقتباس الانجليزية من النورماندية الألفاظ المتصلة بشئون المائدة والطهى وألوان الطعام يرجع السبب فيما تمتاز به الانجليزية من أسلوب غريب فى تسمية الحيوانات المأكوله اللحم . فكثير من هذه الحيوانات يطلق على كل منها فى الانجليزية اسمان : اسم سكسونى الأصل يطلق على الحيوان ما دام حياً لا علاقة له بشئون المائدة sheep, calf, ox, pig ؛ واسم آخر مقتبس من النورماندية يطلق عليه بعد ذبحه وإعداده للغذاء mutton, veal, beef, pork . وقد انتقل إلى اليونانية ، ومنها إلى اللاتينية ، كثير من الكلمات الفينيقية المتصلة بشئون الملاحة والبحرية ؛ وذلك لأن الفنيقيين قد سبقوا غيرهم من الشعوب فى هذا المضمار . وانتقل إلى اللاتينية كثير من الكلمات الاغريقية المتعلقة بالمصطلحات الفلسفية والدينية ؛ وذلك لبراعة الاغريق فى ميدان الفلسفة ولأن الدين المسيحى قد انتشر بفضلهم فى شرق الامبراطورية الرومانية ووسطها . وقد أخذت اللغات الجرمانية عن اللاتينية كثيراً من المفردات المتصلة بالقضاء والتشريع ونظم الاجتماع والسياسية .. وما إليها ؛ وذلك لأن الرومان كانوا مبرزين فى جميع هذه الشئون(١) . ولهذا السبب نفسه انتقل إلى الفرنسية كثير من الكلمات الجرمانية المتصلة بشئون الحرب ومنها كلمة الحرب نفسها la guerre(٢) ، وكثير من الكلمات الايطالية المتصلة بالموسيقى وآلاتها والفنون الجميلة ؛ وانتقل إلى معظم اللغات الأوروبية وغيرها المفردات الانجليزية المتصلة بالألعاب الرياضية ، والمفردات الفرنسية المتعلقة بالأزياء وألوان الطعام .

ومن أجل ذلك تنتقل مع المنتجات الزراعية والصناعية أسماؤها فى لغة المناطق التى ظهرت فيها لأول مرة أو اشتهرت بانتاجها أو تصدر منها فى الغالب ، فتنتشر عن هذا الطريق فى لغات البلاد الأخرى . فكلمة « الشاى » مثلا قد انتقلت إلى

---

(١) V. Dausat : Philosophie du langage, 105 .

(٢) فهى مأخوذة من الكلمة الجرمانية القديمة Werra .

معظم لغات العالم من لغة جزر « ماليزيا » Malaisie التى كانت المصدر الأول لهذه المادة (« شاى » فى العربية ، «thé» فى الفرنسية ، «tea» فى الانجليزية .. إلخ) . وكذلك كلمة الطباق ؛ قد انتقلت إلى معظم اللغات الانسانية من لغة السكان الأصليين لأمريكا حيث كشفت هذه المادة لأول مرة (« طباق » فى العربية ، «tabac» فى الفرنسية ، «tobacco» فى الانجليزية .. إلخ) . وعن هذا الطريق انتقل إلى اللغات الأوروبية كثير من الكلمات العربية الدالة على منتجات زراعية أو صناعية : كالليمون ، والموصلى (وهو نسيج خاص ينسب إلى الموصل) ، والزعفران ، والشراب ، والسكر ، والكافور ، والقنوة (عسل قصب السكر المجمد) . والقهوة ، والقطن ، والقرمزى ، والكمون ، والدمشقى (نسيج ينسب إلى دمشق) :

فى الانجليزية :

lemon, muslin, saffron, sherbet, syrop, sugar, camphor, candy, coffee, cotton, crimson, cumin, damask.

وفى الفرنسية :

limon, mousseline, safran, sorbet, sirop, sucre, camphre, candi, café, coton, cramoisi, cumin, damas.

وأهم ناحية يظهر فيها هذا التأثر هى الناحية المتعلقة بالمفردات . ففى هذه الناحية على الأخص تنشط حركة التبادل بين اللغات ، ويكثر اقتباسها بعضها من بعض . وقد تذهب بعض اللغات بعيداً فى هذا السبيل ، فتقتبس معظم مفرداتها أو قسماً كبيراً منها عن غيرها ، كما فعلت التركية مع الفارسية والعربية ، والسريانية مع اليونانية ، والفارسية مع العربية . وأما القواعد وأساليب الصوت فلا تنتقل فى الغالب من لغة إلى أخرى إلا بعد صراع طويل بين اللغتين ، ويكون انتقالها إيذاناً بقرب زوال اللغة التى انتقلت إليها واندماجها فى اللغة التى انتقلت منها ، وإيذاناً فى الوقت نفسه بأن حضارة الشعب الذى انتقلت إليه هذه الأمور قد أخذت تتلاشى فى حضارة الشعب الذى انتقلت منه ، كما سيأتى بيان ذلك فى صراع اللغات[1] .

---

(١) انظر الفصل الثانى من هذا الكتاب .

ولهذا تخضع فى الغالب الكلمات المقتبسة للأساليب الصوتية فى اللغة التى اقتبستها ولمقومات هذه اللغة ، فينالها كثير من التحريف فى أصواتها وطريقة نطقها ، وتبعد فى جميع هذه النواحى عن صورتها القديمة . فالكلمات التى أخذتها العربية مثلا عن الفارسية أو اليونانية قد صبغ معظمها بصبغة اللسان العربى ، حتى بعد كثيراً عن أصله . ومن ثم نرى أن الكلمة الواحدة قد تنتقل من لغة إلى عدة لغات ، فتتشكل فى كل لغة منها بالشكل الذى يتفق مع أساليبها الصوتية ومناهج نطقها ؛ حتى لتبدو فى كل لغة منها غريبة عن نظائرها فى اللغات الأخرى . فالكلمات العربية مثلا التى انتقلت إلى اللغات الأوروبية قد تمثلت فى كل لغة منها بصورة تختلف اختلافاً غير يسير عن صورتها فى غيرها .

وكثيراً ما ينال معنى الكلمة نفسه تغيير أو تحريف عند انتقالها من لغة ألى لغة أو من لهجة إلى أخرى وفق ما تقتضيه الظروف الاجتماعية المحيطة بهذا الانتقال : فقد يخصص معناها العام ويقصر على بعض ما يدل عليه ؛ وقد يعمم مدلولها الخاص ؛ وقد تستعمل فى غير ما وضعت له لعلاقة ما بين هذين المعنيين ؛ وقد تنحط إلى درجة وضيعة فى الاستعمال فتصبح من فحش الكلام وهجره ؛ وقد تسمو إلى منزلة راقية فتعتبر من نبيل القول ومصطفاه ... وهلم جرا[1] .

* * *

---

(١) ضرب العلامة دوزا Dauzat فى كتابه فلسفة اللغة Philosophie du Langage أمثلة طريفة لهذه الظواهر (انظر ص ١١٠ ، ١١١ من كتابه هذا) .

(٣)

العوامل الأدبية

تشمل هذه الطائفة جميع ما تجود به القرائح من وسائل ومنتجات تؤدى إلى حفظ اللغة ، وتعليمها ، وتوسيع نطاقها ، وتكملة نقصها ، وتهذيبها من نواحى المفردات والقواعد والأساليب ، وتسجيل آثارها ، واستخدامها فى مختلف فروع الترجمة والتأليف ... وهلم جرا .

ولما كانت هذه المنتجات الأدبية تساير حضارة الأمة ، وتترسم نهضة المجتمع ، وتتأثر بجميع ما يطرأ على الحياة الاجتماعية من تطور ، وتترجم عن عقلية الجماعة ونظمها ومطامحها ، ونظرها إلى الحياة وفهمها لحقائق الكون ، ومبلغ تقدمها فى ميادين العلوم والفنون ، وما وصلت إليه فى سلم الارتقاء ، لذلك كانت الدعائم التى يعتمد عليها التطور اللغوى الناشىء عن هذه العوامل الأدبية لا تختلف فى شىء عن الدعائم التى يعتمد عليها التطور الناشىء عن العوامل المشار إليها فى الفقرتين السابقتين : فكلاهما يرجع إلى ظواهر الاجتماع ، وتدعو إليه مقتضيات العمران ؛ وكلاهما تنعكس فيه ناحية من نواحى الحياة الاجتماعية العامة ، ويتمثل فيه بعض مقومات المجتمع واتجاهاته وما يكتنفه من شئون .

وكل ما بينهما من فرق يرجع إلى أمور ظاهرية أكثر منها حقيقية ، ولا يكاد يعدو الناحيتين الآتيتين :

١ ـــ أن آثار الأمور الأدبية تتجه أولا وبالذات إلى لغة الكتابة ؛ بينما تتجه الطوائف السابقة فى صورة مباشرة إلى لغة المحادثة .

وليس هذا إلا مجرد فارق سطحى ؛ لأن كل تطور يصيب إحدى اللغتين (لغة الكتابة أو لغة المحادثة) يتردد صداه فى اللغة الأخرى . فآثار العوامل الأدبية التى نحن بصددها ـــ وإن اتجهت أولا وبالذات إلى لغة الكتابة ـــ لا تلبث أن تظهر فى لغة المحادثة ؛ وآثار العوامل التى تكلمنا عنها فى الفقرتين السابقتين ـــ وإن اتجهت فى صورة مباشرة إلى لغة المحادثة ـــ تمتد لا محالة إلى لغة الكتابة .

٢ ـــ أن العوامل الأدبية تبدو فى صورة أمور مقصودة تسيرها الارادة الانسانية ، على حين أن الطوائف التى تكلمنا عنها فى الفقرتين السابقتين تتمثل مظاهرها فى أمور غير مقصودة ، تحدث من تلقاء نفسها ، وتبدو آثارها فى صورة جبرية لا اختيار للانسان فيها ، ولا يد له على وقفها أو تغيير ما تؤدى إليه .

وهذا الفارق كذلك ظاهرى أكثر منه حقيقى ، لأن هذه الطوائف من العوامل ـــ على ما يبدو فى بعضها من قصد واختيار ، وفى بعضها الآخر من تلقائية وإجبار ـــ تسير جميعاً ، فى حقيقة الأمر ، وفقاً للقوانين التى تسير عليها الحياة الاجتماعية ؛ وتتجه جميعاً فى السبيل التى يسلكها المجتمع فى تطوره العام .

هذا ، وللعوامل الأدبية مظاهر كثيرة من أهمها : الرسم ؛ والتجديد فى اللغة ؛ والبحوث اللغوية ؛ وحركة التأليف والترجمة . وسنتكلم عن كل واحد من هذه الأمور الأربعة على حدة :

أولا ـــ الرسم :

لم يتح الرسم إلا لعدد قليل من اللغات الإنسانية . أما معظمها فقد اعتمدت حياته على مجرد التناقل الشفوى . فالشرط الأساسى لحياة اللغة هو التكلم بها لا رسمها : فكثيراً ما تعيش اللغة بدون أن يكون لها سند تحريرى ؛ ولكن من المستحيل أن تنشأ لغة أو تبقى بدون أن يكون لها مظهر صوتى .

وعلى الرغم من ذلك فللرسم فى حياة اللغة ونهضتها آثار تجل عن الحصر . فبفضله تضبط اللغة ، وتدون آثارها ، ويسجل ما يصل إليه الذهن الانسانى ،

وتنتشر المعارف ، وتنتقل الحقائق فى الزمان والمكان . وهو قوام اللغات الفصحى ولغات الكتابة ودعامة بقائها . وبفضله كذلك أمكننا الوقوف على كثير من اللغات الميتة كالسنسكريتية والمصرية القديمة والاغريقية واللاتينية والقوطية ... ؛ فلولا ما وصلنا من الآثار المكتوبة بهذه اللغات ما عرفنا منها شيئاً ولضاعت منا مراحل كثيرة من مراحل التطور اللغوى .

وترجع أساليب الرسم التى استخدمت فى مختلف اللغات إلى أسلوبين اثنين :

أحدهما ــ اسلوب الرسم المعنوى Idéographie, écriture idéographique :

وهو الذى يضع لكل معنى صورة خطية خاصة . وقد استخدم هذا الأسلوب فى لغات كثيرة منها الصينية[1] والمصرية القديمة[2] . ولا نعلم على وجه اليقين أول أمة استخدمته ؛ ولكن يظهر من شواهد كثيرة أنه أقدم أساليب الرسم الانسانى .

وترجع الصور الخطية التى تستخدم فى هذا الأسلوب إلى نوعين . فأحياناً تكون صوراً حقيقية للأشياء التى يراد التعبير عنها أو لأجزاء من هذه الأشياء ؛ كما يشير الرسم الهيروغليفى إلى الشمس بدائرة فى وسطها نقطة ، وإلى القمر بقوس فى وسطه نتوء ، وإلى الزنبق بثلاث فروع من شجرته فى طرف كل منها ثلاث

---

(١) يرتكز الرسم الصينى على ٢١٤ رمزاً أصلياً (تسمى بالمفاتيح clefs أو الأصول radicaux) ، يعبر كل رمز منها عن معنى عام ، يعين المقصود منه عدد الخطوط التى تضاف إلى هذا الرموز ونوعها .

(٢) يسمى الرسم المصرى القديم بالهيروغليفى Hièrogliphe ، وقد اجتاز هذا الرسم أربع مراحل . فقد كان فى المبدأ تصويراً للأشياء ، فيعبر عن الشمس مثلا بدائرة فى وسطها نقطة وعن القمر بقوس فى وسطه نتوء ... وهلم جرا . ثم دخل فيه بعد ذلك طريقة الرموز البسيطة والمركبة ، فيعبر مثلا عن اليوم بصورة الشمس (دائرة فى وسطها نقطة) ، وعن الشهر بصورة نجمة تعلو صورة قمر مستعرضة (قوس فى وسطه نتوء) . وفى المرحلة الثالثة دخلت فيه الطريقة المقطعية ، فاستخدمت مثلا الصورة التى كان يعبر بها قديماً عن الفم (صورة الشفتين) للتعبير عن مقطع « را » . وفى المرحلة الأخيرة دخلت فيه الطريقة الهجائية ، فاستخدمت مثلا الصورة السابقة لا للتعبير عن مقطع « را » بل للتعبير عن صوت الراء الساكن غير المتبوعة بحركة كما هو شأن الراء فى الحروف الهجائية العربية . والمظهران الأولان فقط (الصورى والرمزى) هما اللذان يعدان من النوع الذى نحن بصدد الكلام عنه .أما المظهران الأخيران (المقطعى والهجائى) فمن النوع الثانى الذى سنتكلم عليه وهو الرسم الصوتى .

زنبقات ، وإلى الصقر بصورته واقفاً .. وهلم جرا . وأحياناً تكون مجرد رموز مصطلح عليها للتعبير عن الأشياء والمعانى Symboliste ؛ كما يشير الرسم الهيروغليفى إلى الشهر بصورة هلال فى وسطه نجمة ، وإلى اليوم بدائرة فى وسطها نقطة ؛ وكما يشير الرسم الصينى لمعنى « الانسانية » بخطين يتكون منهما شكل يشبه رقم ٨ .

ولهذا الأسلوب من الرسم عيوب كثيرة . فهو أسلوب بطىء يقتضى الكاتب إسرافاً كبيراً فى الوقت والمجهود . ولكثرة صوره ورموزه تبعاً لكثرة المعانى والأشياء ، يقتضى تعلمه وتعليمه جهوداً شاقة وزمناً طويلا . ولذلك يقضى كثير من الصينيين زهرة شبابهم فى المدارس بدون أن يتموا تعلم الرسم الصينى . وهو لا يقوى على تأدية وظيفته إلا فى صورة ناقصة مبتورة ، إذ من المستحيل ، مهما كثرت صوره وتعددت رموزه ، أن ينتظم جميع ما يخطر بالذهن الانسانى من معان وأفكار وجميع ما ينطق به اللسان من ألفاظ وعبارات . هذا إلى أنه بمقتضاه لا يوجد للمعنى الواحد أكثر من صورة واحدة ؛ مع أنه فى معظم اللغات الانسانية ، كثيراً ما يوجد للمعنى الواحد عدة ألفاظ مترادفة . فاستخدامه فى حالات كهذه يوقع فى اللبس ويؤدى إلى الاضطراب .

وثانيهما ـــ أسلوب الرسم الصوتى Ecritnre Phonétique, ou Phonétisme :

وهو الذى يضع لكل صوت صورة خاصة . وقد استخدم هذا الأسلوب من الرسم فى كثير من اللغات القديمة ؛ ويستخدم الآن فى معظم الشعوب المتمدينة .

وترجع الصور الخطية التى استخدمت فى هذا الرسم إلى طائفتين : إحداهما الصور المقطعية Syllabique وهى التى ترمز إلى مقاطع كاملة ، كما يرمز فى الهيروغليفى بشكل الشفتين إلى مقطع « را » وفى المسمارى بصورة اليد إلى مقطع « سو » ؛ والأخرى الصور الهجائية Alphabétique وهى التى ترمز إلى أصوات ساكنة كما يرمز فى الرسم العربى بهذا الحرف : « ل » إلى صوت اللام مجردة من جميع الحركات .

ويظهر أن قدماء المصريين كانوا أول من استخدم هذا الأسلوب بنوعيه

(المقطعى والهجائى) منذ أكثر من ثلاثين قرناً قبل الميلاد . فمن بين صور الخط الهيروغليفى ما يرمز إلى مقاطع صوتية (صورة الشفتين مثلا التى تعبر عن مقطع « را ») ، بل ومن بينها مايرمز إلى مجرد أصوات ساكنة (صورة الشفتين مثلا التى أصبحت ترمز فيما بعد إلى صوت الراء الساكنة غير المتبوعة بأية حركة ، كما هو شأن الراء فى الحروف الهجائية العربية) . غير أن قدماء المصريين لم يستخدموا هذا الأسلوب وحده ، بل مزجوه بالأسلوب الأول . فالرسم الهيروغليفى خليط من الرسم الصوتى والرسم المعنوى ، يستخدم بجانب الصور المقطعية والهجائية ، صوراً حقيقية ورمزية[1] .

ومن الراجح أن الفنيقيين هم أول من استخدم الأسلوب الهجائى وحده . وقد أضطرهم إلى ذلك نشاطهم التجارى وكثرة تنقلهم وتعدد علاقاتهم بمختلف الشعوب . فقد كانت هذه الشئون تقتضيهم فى جميع أعمالهم السرعة فى الحركة ، والاقتصاد فى المجهود ، وتحرى وجوه الدقة . والأسلوب الهجائى هو أسرع أساليب الرسم ، وأيسرها ، وأدناها إلى الكمال . وليس من شك فى أنهم قد حاكوا فى أسلوبهم هذا ما كان يشتمل عليه الخط الهيروغليفى من صور هجائية . على أنه قد ثبت أنهم أخذوا أخذاً عن هذا الخط نحو ثلاثة عشر حرفاً من حروفهم .

وقد انتشرت حروف الهجاء الفينيقية فى معظم أنحاء العالم القديم واستخدمها كثير من شعوبه ؛ ومنها تفرعت بشكل مباشر أو غير مباشر جميع حروف الهجاء التى استخدمت فيما بعد فى مختلف اللغات الانسانية .

فمن الحروف الفينيقية اشتقت الحروف العبرية القديمة ؛ ومن هذه اشتق الرسم العبرى الحديث (الحروف العبرية المربعة l'hérbreu carré الذى استخدم بعد رجوع بنى إسرائيل من نفى بابل ؛ وظل مستخدماً إلى الآن بدون أن يناله تغيير ذو بال) .

ومن الحروف الفينيقية اشتق كذلك نوعان من الرسم قريبا الشبه بالعبرية

---

(١) انظر صفحتى ٣٣ ، ٣٤ والتعليق التالى بصفحة ٣٣ .

الحديثة (الحروف العبرية المربعة) : أحدهما الخط التدمرى(١) (أو البالميرينى Palmyrénien)(٢) ؛ والآخر الخط النبطى Nabatéen . ومن التدمرى اشتقت الحروف السريانية التى أخذت منها الخطوط المغولية والمنشورية . ومن الخط النبطى والخط السريانى اشتقت حروف الهجاء العربية .

ومن الرسم الفينيقى أخذ كذلك الرسم الآرامى . بل إن الرسم الآرامى فى أقدم أشكاله لا يكاد يختلف عن الرسم الفينيقى . وعن الآرامية أخذت الحروف الهندية الباكتريانية Indo-Bactrien(٣) التى كانت مستخدمة فى شمال الهند ، ومن هذه الحروف اشتقت جميع الحروف المستخدمة الآن فى مختلف لغات الهند وسيام Siam وكامبدج Cambodge (بالهند الصينية) وماليزيا Malaisie .

ومن الحروف الفينيقية اشتق كذلك الرسم الاغريقى ، ومن الرسم الاغريقى أخذت الحروف اللاتينية ، ومن الرسمين اللاتينى والاغريقى تفرعت جميع أنواع الرسم المستخدمة فى مختلف اللغات الأوروبية فى العصر الحاضر .

والأصل فى الرسم الهجائى أن يكون معبراً تعبيراً دقيقاً عن أصوات الكلمة بدون زيادة ولا نقص ولا خلل فى الترتيب ، فيرسم فى موضع كل صوت من أصواتها الحرف الذى يرمز إليه ، ولا يوضع فيها حرف زائد لا يكون له مقابل صوتى . وقد حوفظ على هذا الأصل إلى حد كبير فى بعض اللغات الانسانية ، وخاصة القديم

---

(١) نسبة إلى تدمر وهى مملكة قديمة كانت تشمل جزءاً كبيراً من سوريا الحالية . ومعنى تدمر فى العبرية بلاد النخيل .

(٢) نسبة إلى بالميرين Palmurène وهو اسم فرنسى لبلاد تدمر ومعناه فى الفرنسية هو نفس معنى تدمر فى العبرية أى بلاد النخيل .

(٣) نسبة إلى باكتريان Bactriane وهى منطقة قديمة كان يسكنها الايرانيون وتشمل بعض مناطق تركستان وفارس .

منها . فرسم الكلمة فى السنسكريتية لا يكاد يختلف فى شىء عن صوتها[1] . ولكن معظم أنواع الرسم ، وخاصة الحديث منها ، لا تتوافر فيه هذه المطابقة . فكثيراً ما يرسم فى الكلمة حرف زائد أو حروف زائدة ليس لها مقابل صوتى فى النطق (مثلا : « مائه » فى العربية ؛ «loup» فى الفرنسية ، «thumb» فى الانجليزية) . وكثيراً ما تشتمل الكلمة على أصوات لا تمثلها حروف فى الرسم (مثلا : « هذا » فى العربية ، «picture» فى الانجليزية) . وكثيراً ما يرسم فى الكلمة حرف أو أكثر للتعبير عن صوت غير الصوت الذى وضع له («dompter» فى الفرنسية ؛ «enough» «ocean» ، «of» فى الانجليزية) . وكثيراً ما ينطق بالحرف الواحد أو بالمقطع الواحد بصور صوتية مختلفة تبعاً لاختلاف الكلمات ، أو اختلاف أزمنتها ، أو اختلاف موقعه فيها ، أو اختلاف ما يسبقه أو يلحقه من حروف .. ، فيرقق فى بعض الكلمات ويفخم فى بعضها الآخر ، أو يمد فى بعضها ويقصر فى بعضها الآخر ، أو يضغط عليه فى بعضها ويرسل فى بعضها الآخر ... وهلم جرا (اللام فى « والله » واللام فى « بالله ») .

«Law, low»; «Iget a piece of **lead**, I **lead** some men»; «I will **read** this book, I have just **read** this book»; «The lines of demarkation that **separate** sciences..., This book contains **separate** sciences»; «I **object** against this way, The **object** of our book is..».

وكثيراً ما تختلف الحروف فى كلمتين ويتحد النطق بهما a piece of bread, in time of peace .

---

(١) وقد ساعد على ذلك أن الرسم السنسكريتى لم يكد يغادر صوتاً من أصوات اللغة إلا وضع له حرفاً يرمز إليه . ولذلك كثرت حروف الهجاء فى هذا الرسم ، وقويت على التعبير عن مختلف الأصوات . فقد بلغت ٤٦ حرفاً منها ٣٣ حرفاً ساكناً و١٣ حرفاً ليناً ، هذا إلى ثلاث علامات للشكل .

ويرجع السبب فى هذه الظواهر وما إليها إلى عوامل كثيرة من أهمها عاملان :

أحدهما : أن حروف الهجاء فى معظم أنواع الرسم لا تمثل جميع أصوات اللغة التى تكتب بها . فقد جرت العادة مثلا فى معظم أنواع الرسم ألا يوضع لكل صوت عام أكثر من حرف هجائى واحد ، مع أن الصوت العام كثيراً ما يندرج تحته أصوات مختلفة فى مخرجها ونبرتها وقوتها ومدة النطق بها وما إلى ذلك . فالصوت العام للام مثلا ليس له فى معظم أنواع الرسم الحديثة إلا حرف واحد (ل ...) ، مع أن هذا الصوت يختلف نطقه باختلاف الكلمات والمواقع . فأحياناً ينطق بها مرققاً (بالله ، low, hole) وأحياناً مفخماً (والله ، law) ، وتارة ينطق به مضغوطاً عليه (أقسم بالله) وأخرى ينطق به مرسلا (يستعين بالله) ... وهلم جرا ، ورسمه واحد فى جميع هذه الحالات . والصوت العام للألف اللينة ليس له فى العربية إلا حرف واحد ، مع أنه أحياناً ينطق به مستقيماً ، وأحياناً ينطق به ممالا . والصوت العام للجيم ليس له فى العربية إلا حرف واحد ، مع أنه فى بعض اللهجات ينطق به مجرداً من التعطيش ، وفى بعضها ينطق به معطشاً كل التعطيش ، وفى بعضها ينطق به بين هذا وذاك .

والآخر : أن أصوات اللغة فى تطور مطرد وتغير دائم . فالأصوات التى تتألف منها كلمة ما لا تجمد على حالتها القديمة ، بل تتغير بتغير الأزمنة والمناطق ، وتتأثر بطائفة كبيرة من العوامل الطبيعية والاجتماعية واللغوية : فأحياناً يسقط منها بعض أصواتها القديمة ، وأحياناً يضاف إليها أصوات جديدة ، وتارة يستبدل ببعض أصواتها أصوات أخرى ، وتارة تحرف أصواتها عن مواضعها فيختل ترتيبها القديم ... ؛ وقد ينالها أكثر من تغير واحد من هذه التغيرات . على حين أن الرسم لا يساير النطق فى هذا التطور ، بل يميل غالباً إلى الجمود على حالته القديمة أو ما يقرب منها ؛ فلا يدون الكلمة على الصورة التى انتهت إليها أصواتها ، بل على الصورة التى كانت عليها من قبل . وهذا هو منشأ الخلاف فى معظم اللغات الأوربية الحديثة بين النطق الحالى لكثير من الكلمات وصورتها فى الرسم . فمعظم وجوه هذا الخلاف ترجع إلى جمود الرسم وتمثيله لصور صوتية قديمة نالها مع الزمن كثير من التغير فى ألسنة الناطقين باللغة .

ومع ما للرسم من الفوائد الجليلة التى أشرنا إليها فى صدر هذه الفقرة(١) ، فإن عدم مطابقته للنطق يجعل له بعض آثار ضارة . فهو يعرض الناس للخطأ فى رسم الكلمات . ويجعل تعلم القراءة والكتابة لأهل اللغة أنفسهم من الأمور الشاقة المرهقة ، ويطيل زمن الدراسة ، فيسبب إسرافاً كبيراً فى الوقت والمجهود . وما يلاقيه أهل اللغة من صعوبات بهذا الصدد يلاقى أضعافه الأجانب الراغبون فى تعلمها . ومن الواضح أن هذا يعوق انتشارها فى الخارج ، ويضيق سبل الانتفاع بآدابها وعلومها ، فيصعب التفاهم بين الشعوب وتضعف بينها حركة التبادل العلمى والثقافى . هذا إلى أن تمثيل الرسم لصور صوتية قديمة يعمل على رجع اللغة إلى الوراء وردها إلى أشكالها العتيقة . فكثيراً ما يتأثر الفرد فى نطقه للكلمة بشكلها الكتابى ، فلا يلفظها بالصورة التى انتهى إليها تطورها الصوتى ، بل ينطق بها وفق رسمها ، فتنحرف إلى الوضع الذى كانت عليه فى العهود القديمة . وليس الأجانب وحدهم هم المعرضين لهذا الخطر ، بل إنه كثيراً ما يصيب أهل اللغة أنفسهم . وإليك مثلا الحرف المشدد فى اللغة الفرنسية فى مثل Savamment, évidamment .. الخ . فقد كان ينطق به وفق رسمه فى العصور الأولى لهذه اللغة . ثم انقرضت هذه الطريقة منذ عهد بعيد ، وأخذ الفرنسيون ينطقون به مخففاً كما ينطقون بحرف واحد «Savaman' évidaman» . ولكن منذ عهد قريب أخذت عادة النطق به مشدداً تظهر فى ألسنة كثير منهم تحت تأثير صورته الخطية . فمن جراء الرسم نكصت اللغة على عقبيها فى هذه الناحية عدة قرون إلى الوراء(٢) .

ومن أجل ذلك كان العمل على إصلاح الرسم وتضييق مسافة الخلف بينه وبين النطق موضع عناية كثير من الأمم فى مختلف العصور . فقد ظهر فى هذا السبيل بعض حركات إصلاحية عند اليونان والرومان فى العصور السابقة للميلاد . وفى أواخر القرن التاسع عشر عالج الألمان أساليب رسمهم القديم وأصلحوا كثيراً من

---

(١) انظر آخر ص ٣٢ وأول ٣٣

(٢) ومن ذلك أيضاً الحروف الساكنة (غير اللينة) فى آخر الكلمات فقد حذفت فى النطق الفرنسى فى معظم المفردات منذ عهد بعيد . ولكن أخذ كثير من الفرنسيين فى العهد الحاضر ينطقون ببعضها تحت تأثير صورتها الخطية : «but» (نطقها الصحيح bu) تحولت الآن فى ألسنة الكثير من الفرنسيين إلى «bute» .

نواحيه . ومثل هذا حدث منذ عهد قريب فى مملكة النرويج ، ثم فى جمهورية البرازيل . وقد بدت بهذا الصدد محاولات إصلاحية كثيرة فى البلاد الواطئة (هولاندا) وانجلترا والولايات المتحدة ، ولكن معظم هذه المحاولات لم تؤد إلى نتائج ذات بال .
وأدخلت الأكاديمية الفرنسية ، يشد أزرها ويعاونها طائفة من ساسة فرنسا وعلمائها ، إصلاحات كثيرة على الرسم الفرنسى . وقد جانبت فى إصلاحاتها هذه مناهج الطفرة واتبعت سبل التدرج البطىء . فكانت تدخل فى كل طبعة جديدة لمعجمها ، بجانب التنقيحات اللغوية والعلمية ، طائفة من الاصلاحات الاملائية .
وقد أقرت عام ١٩٠٦ م مجموعة هامة من القواعد الجديدة فى الرسم الفرنسى . هذا إلى إصلاحات العلامة جريار Gréard التى تناول كثيراً من نواحى الرسم ، وأقرتها الأكاديمية الفرنسية . وكانت كل مجموعة من هذه الاصلاحات تلقى مقاومة عنيفة من جانب غلاة المحافظين . وعلى الرغم من ذلك ، عم الأخذ بها ، وكان لها أكبر فضل فى تيسير الرسم الفرنسى وتضييق مدى الخلاف بينه وبين النطق الحديث .
والرسم العربى نفسه قد تناولته يد الاصلاح أكثر من مرة من قبل الاسلام ومن بعده . ومع ذلك لا يزال عدد كبير من المفكرين فى عصرنا الحاضر يأخذون عليه كثيراً من وجوه النقص والابهام (كاضطرابه فى رسم الهمزة والألف اللينة ، وإغفاله الرمز إلى حركات الحروف ، واختلاف صور حروفه باختلاف مواضعها فى الكلمة ، واشتماله على عدة مجموعات تتحد حروف كل مجموعة منها فى الصورة ولا يتميز بعضها عن بعض إلا بالاهمال والاعجام وعدد النقط ب ت ث ، ج ح خ ، د ذ .. الخ) ويدعون إلى إصلاحه من هذه النواحى وغيرها .

ولكن الرسم العربى ليس فى حاجة إلى كثير من الاصلاح ، فهو من أكثر أنواع الرسم سهولة ودقة وضبطاً فى القواعد ومطابقة للنطق(١) .

---

(١) انظر ما كتبناه فى عيوب الرسم العربى ووجوه إصلاحه فى مجلة الرسالة (عدد ٦ــ١١ــ٤٤) وفى مجلة الشرق الجديد (أعداد أبريل ومايو ويونية سنة ١٩٤٥) وفى كتابنا « فقه اللغة » (الطبعة السادسة ص ٢٥٣ ــ ٢٦٦) ، وفى صفحات ١٥٠ ــ ١٦٣ من هذا الكتاب .

هذا ، وعلى الرغم من المساوىء السابق ذكرها ، فإن لجمود الرسم على حالته القديمة أو ما يقرب منها بعض فوائد جديرة بالتنويه . فهو يوحد شكل الكتابة فى مختلف العصور ، ويسهل تناقل اللغة ، ويمكن الناس فى كل عصر من الانتفاع بمؤلفات سلفهم وآثارهم . فلو كان الرسم يتغير تبعاً لتغير أصوات الكلمات لأصبحت كتابة كل جيل غريبة على الأجيال اللاحقة له ، ولاحتاج الناس فى كل عصر إلى تعلم طرق النطق والالمام بحالة اللغة فى العصور السابقة لهم حتى يستطيعوا الانتفاع بمخالفات آبائهم . هذا إلى أن جمود الرسم على حالته القديمة يفيد الباحث فى اللغات أكبر فائدة . فهو يعرض له صورة صحيحة لأصول الكلمات ، ويقفه على ما كانت عليه أصواتها فى أقدم عصور اللغة : فالرسم للألفاظ أشبه شيء من هذه الناحية بالمتحف للآثار .

* * *

وقد كان للرسم فى اللغات الأوربية فضل كبير فى تيسير النطق بكثير من الأسماء المتداولة المركبة من عدة كلمات . فقد جرت العادة أن يكتفى فى التعبير عن هذه الأسماء بذكر الحروف الأولى للكلمات التى تتألف منها «T.S.F. = tébégraphe sans fil», «M.A. = Master Of Arts» . وشاع هذا الاستعمال فى أسماء المخترعات والشركات والأحزاب والفرق الحربية والنظريات والشهادات العلمية والدول .. وما إلى ذلك . وقد أنزلت هذه الرموز منزلة الكلمات وأخذ الناس يصرفونها وينسبون إليها ويشتقون منها أفعالا وصفات . وللاقتصار عليها وكثرة استخدامها فى الحديث والكتابة تنوسى أصلها عند عامة الناس ، وأصبح كثير منهم يعتقد أنها كلمات كاملة (النازى ، والناف ، الأنزاك ، باكستان ، نايلون ... الخ) .

* * *

وللرسم أثر كبير فى تحريف النطق بالكلمات التى يقتبسها الكتاب والصحفيون عن اللغات الأجنبية . وذلك أن اختلاف اللغات فى الأصوات ،

وحروف الهجاء والنطق بها ، وأساليب الرسم .. ، كل ذلك يجعل من المتعذر أن ترسم كلمة أجنبية فى صورة تمثل نطقها الصحيح فى اللغة التى اقتبست منها . فينشأ من جراء ذلك أن ينطق بها معظم الناس بالشكل الذى يتفق مع رسمها فى لغتهم . ويشيع هذا الأسلوب من النطق ، فتصبح الكلمة غريبة كل الغرابة أو بعض الغرابة عن الأصل الذى أخذت عنه . وليس هذا مقصوراً على اللغات المختلفة فى حروف هجائها كالعربية واللغات الأوربية ، بل يصدق كذلك على اللغات المتفقة فى حروف الهجاء كالفرنسية والانجليزية . فجميع الكلمات الانجليزية التى انتشرت فى الفرنسية عن طريق رسمها فى الصحف والمؤلفات ينطق بها الفرنسيون فى صورة لا تتفق مع أصلها الانجليزى «boy-scout, foot-ball; rugby; sterling; standard of living» حتى إن كثيراً منها لا يكاد يتبينها الانجليزى إذا سمعها من فرنسى .

ثانياً ــ حركة التجديد فى اللغة :

تبدو حركة التجديد فى اللغة فى مظاهر كثيرة من أعظمها أثرا فى التطور اللغوى الأمور الآتية :

١ ــ تأثر الأدباء والكتاب بأساليب اللغات الأجنبية ، واقتباسهم أو ترجمتهم لمفرداتها ومصطلحاتها ، وانتفاعهم بأفكار أهلها وإنتاجهم الأدبى والعلمى . فلا يخفى ما لهذا كله من أثر بليغ فى نهضة لغة الكتابة وتهذيبها واتساع نطاقها وزيادة ثروتها . والأمثلة على ذلك كثيرة فى تاريخ الأمم الغابرة وفى العصر الحاضر . فأكبر قسط من الفضل فى نهضة اللغة العربية فى عصر بنى العباس يرجع إلى انتفاع الأدباء والعلماء باللغتين الفارسية والاغريقية . فقد أخذوا فى ذلك العصر يترجمون آثارهما ، ويعقبون عليها بالشرح والتعليق ، ويستغلونها فى بحوثهم ، ويحاكون أساليبهما ، ويقتبسون منهما عدداً كبيراً من المفردات العلمية وغيرها ، ويمزجونها بمفردات لغتهم عن طريق تعريبها تارة وعن طريق ترجمتها تارة أخرى ، فاتسع بذلك متن اللغة العربية ، وازدادت مرونة وقدرة على تدوين الآداب والعلوم . ويرجع كذلك أكبر قسط من الفضل فى نهضة اللغة العربية بمصر فى العصر الحاضر إلى انتفاع الصحفيين والأدباء والعلماء باللغات الأوربية الحديثة ، ومحاكاتهم لأساليبها . وتعريبهم أو ترجمتهم

لألفاظها ومصطلحاتها ، واستغلالهم فى مؤلفاتهم ومترجماتهم لمنتجات أهلها فى شتى ميادين الحركة الفكرية . ولغة الكتابة بفرنسا فى العصر الحاضر مدينة بأهم نواحى رقيها إلى تأثرها باللغتين اللاتينية والاغريقية من جهة وباللغات الأوربية الحديثة من جهة أخرى . فمنذ « عصر النهضة Renaissance » لم ينفك أدباء فرنسا وعلماؤها دائبين على اقتباس المفردات اللاتينية واليونانية القديمة ، ومحاكاة أساليب هاتين اللغتين ، وترسم قواعدهما ومناهجهما فى البحث(١) . وقد أخذوا منذ عهد غير بعيد يقتبسون كثيراً من المفردات والأساليب عن اللغات الأوربية الحديثة وخاصة الانجليزية والألمانية . ولولا آلاف المفردات التى اقتبسها المحدثون من أدباء ألمانيا وعلمائها من اللغة اللاتينية وما تفرع عنها ومن اللغات الأوربية الحديثة وبخاصة الفرنسية والانجليزية ، ما قويت لغة الكتابة بألمانيا أن تصل إلى الشأو الذى هى عليه الآن . ومثل هذا يقال فى معظم لغات الكتابة فى العصر الحاضر .

وكثيراً ما تقتبس لغة الكتابة عن اللغات الأخرى مفردات لها نظير فى متنها الأصلى ، وكثيراً ما تقتبس مفرداً من لغة وتقتبس نظيره فى الدلالة عن لغة أخرى . وإلى هذه الظواهر وما إليها يرجع السبب فى كثرة الألفاظ المترادفة (المشترك المعنوى) فى لغات الكتابة . فما يذهب إليه بعضهم من أن الترادف بالمعنى الكامل لهذه الكلمة لا وجود له فى اللغات ، ليس صحيحاً إلا فيما يتعلق ببعض لغات المحادثة التى تظل بمأمن من الاحتكاك باللغات الأخرى . أما لغات الكتابة التى يستحيل فى العادة بقاؤها بمعزل عن غيرها ، ولغات المحادثة التى يتاح لها هذا الاحتكاك ، فلا تخلو من الترادف بالمعنى الصحيح ، للسبب الذى ذكرناه .

٢ — إحياء الأدباء والعلماء لبعض المفردات القديمة والمهجورة . فكثيراً ما يلجئون إلى ذلك للتعبير عن معان لا يجدون فى المفردات المستعملة ما يعبر عنها تعبيراً دقيقاً ، أو لمجرد الرغبة فى استخدام كلمات غريبة ، أو الترفع عن المفردات التى لاكتها الألسنة كثيراً . وبكثرة الاستعمال تبعث هذه المفردات خلقاً جديداً ،

---

(١) انتشرت بفرنسا حركة المحاكاة للقواعد والأساليب اللاتينية بفضل كتاب القرن السابع عشر وعلى الأخص بلزاك وديكارت وبوسويه Balzac, Descartes, Boussuet .

ويزول ما فيها من غرابة ، وتندمج فى المتداول المألوف . ولا يخفى ما لذلك من أثر فى نهضة لغة الكتابة واتساع متنها وزيادة قدرتها على التعبير . وقد سار على هذه الوتيرة بمصر فى العصر الحاضر كثير من الأدباء والعلماء والصحفيين ، فردوا بذلك إلى اللغة العربية جزءاً كبيراً من ثروتها المفقودة ، وكشفوا عن نواح من كنوزها المدفونة فى أجداث المعجمات .

٣ ـــ خلق الأدباء والعلماء لألفاظ جديدة . فكثيراً ما يلجئون إلى ذلك للتعبير عن أمور لا يجدون فى مفردات اللغة المستعملة ولا فى مفرادتها الداثرة ما يعبر عنها تعبيراً دقيقاً . وقد لا يضطرهم إلى ذلك إلا مجرد الرغبة فى الإبداع ، أو مجانبة الألفاظ المتداولة المألوفة ، أو إبراز المعنى فى صورة رائعة وتثبيته فى الأذهان وتذليل سبل انتشاره بالإغراب فى تسميته . وقد عم استخدام هذه الطريقة فى الأمم الأوروبية منذ القرن التاسع عشر ، وكثر التجاء الأدباء والعلماء إليها بنوع خاص فى تسمية المستحدث من المخترعات الصناعية والمصطلحات العلمية والأحزاب والمبادىء السياسية والاجتماعية ، وفى التعبير عن بعض معان دقيقة فى عالم الأدب والفلسفة وعلم النفس والعلوم الطبيعية والطب والصيدلة ... وما إلى ذلك . وصبغ معظم هذه المصطلحات بصبغة دولية . فأقرته المؤتمرات والهيئات العلمية الممثلة لمختلف الأمم الغربية وعم استخدامها فى لغاتها (تلغراف ، تليفون ، سوسيولوجيا ، جيولوجيا ... الخ) . وقد أجاز مجمع اللغة العربية الالتجاء إلى هذه الطريقة حيث تدعو إلى ذلك ضرورة ، بأن لا يوجد فى مفردات اللغة متداولها ومهجورها ما يعبر تعبيراً دقيقاً عن الاصطلاح المراد التعبير عنه .

ولا يخفى ما لهذه الوسيلة من أثر فى نهضة لغة الكتابة ، واتساع متنها ودقة مصطلحاتها ، وزيادة مرونتها وقدرتها على التعبير .

وقد ارتضى الأدباء والعلماء بعض قواعد عامة فى وضع هذه الألفاظ . ويستعينون عادة فى تكوينها بالنحت والاشتقاق الأكبر ومزج كلمتين أو أكثر فى كلمة واحدة . ويستمدون أصولها من اللغات الحية أو الميتة وخاصة اللاتينية واليونانية القديمة . وكثيراً ما يستعان فى تكوينها بأكثر من لغة واحدة . فمن هذه المفردات

ما هو مؤلف من لغتين (مثلا : « سوسيولوجيا » أى علم الاجتماع ، فصدر الكلمة من أصل لاتينى معناه الجماعة ؛ وعجزها من أصل يونانى معناه المقال أو البحث أو الخطبة) «Sociologie» du latin «societas» = société. et du grec «logos» = discours. بل منها ما هو مؤلف من ثلاث لغات (مثلا : « بيسيكلت » أى الدراجة ، فان « بى » من أصل لاتينى يدل على التثنية ، و « سيكل » من أصل يونانى معناه الدائرة ، و « إت » علامة فرنسية للتصغير) Bicyclette : du latin «bi», deux fois; et du grec «kuklos», cercle, et du suffixe diminutif français «tte» .

وقوام هذه المفردات هو التواضع والاصطلاح . ولذلك كثيراً ما تختلف معانيها اختلافاً يسيراً أو كبيراً عن معانى الأصول التى استمدت منها .

ولا تبقى هذه الألفاظ جامدة على الحالة التى وضعت عليها ، بل ينالها ما ينال غيرها من المفردات ، وتخضع فى تطورها الصوتى والدلالى لنفس القوانين العامة التى تخضع لها الألفاظ الأصيلة . فبمجرد أن يقذف بها فى التداول اللغوى وتتناقلها الألسنة ، تفلت من إرادة مخترعيها وتخضع لنواميس الارتقاء العامة المسيطرة على ظواهر الصوت والدلالة . فاللفظ الموضوع أشبه شىء بحجر يقذف به القاذف فى جهة معينة بقوة خاصة ، فإنه بمجرد أن يفارق يده يخضع فى سيره لقوانين ثابتة صارمة لا يد للقاذف ولا لغيره على تعطيلها أو وقف آثارها . ولذلك يختلف الآن النطق بالألفاظ الموضوعة ويختلف رسمها باختلاف الأمم واللغات . والأسلوب الصوتى الذى كانت تلفظ به منذ قرن أو قرنين مثلا غير الأسلوب الصوتى الذى تلفظ به الآن . وقد أخذ كثير منها عند جميع الكتاب أو عند بعضهم ينحرف فى دلالته نفسها عن المعنى الذى وضع له فى الأصل .

ثالثاً ــ المؤلفات اللغوية :

وهى البحوث التى ترمى إلى حفظ اللغة وضبطها وسلامتها وتخليدها والوقوف على خواصها وتاريخها وآثارها ... وما إلى ذلك . فتشمل المعجمات ودوائر المعارف

وكتب القواعد بمختلف أنواعها (النحو ، الصرف ، الاشتقاق ، الوضع ، البيان ، المعانى ، البديع .. الخ) ، وأدب اللغة وتاريخه ، ودراسة أصوات اللغة ومخارج حروفها ودلالة كلماتها وحياتها والأدوار التى سارت فيها من مختلف نواحيها .. وهلم جرا .

فلا يخفى ما لهذه الجهود من أثر جليل فى حياة لغة الكتابة وحفظها من التحريف وتهذيبها ونهضتها ونقلها من السلف إلى الخلف .

رابعاً ــ نشاط حركة التأليف والترجمة :

فمن الواضح أنه لا حياة للغة الكتابة بدون استخدامها فى هذه الشئون ، وأنه بمقدار نشاط أهلها فى هذه الميادين تتاح لها وسائل الانتشار والرقى والنهوض .

(٤)

انتقال اللغة من السلف إلى الخلف

على الرغم من أن الطفل يأخذ اللغة عن أبويه والمحيطين به بطريق المحاكاة والتعلم ، فإن لغة الخلف فى كل أمة تختلف عن لغة السلف فى كثير من المظاهر .

ويرجع بعض أسباب هذا التطور إلى أمور اجتماعية ، ولكن طائفة غير يسيرة منها ترجع إلى أمور غير اجتماعية .

١ ـــ أما العوامل الاجتماعية التى تؤثر فى هذا التطور فيرجع أهمها إلى أمرين :

أحدهما : النظم والتقاليد التى يسير عليها المجتمع فى تلقين الأطفال اللغة فى الأسرة وتعليمهم إياها فى المدارس . فلا يخفى ما لهذه النظم من أثر بليغ فى تطور اللغة فى أثناء انتقالها من السلف إلى الخلف ، وفى مبلغ اختلافها فى كل جيل عن الجيل السابق له .

وغنى عن البيان أن هذه النظم تترجم عن اتجاهات المجتمع وما يرمى إليه من أهداف فى شئون التربية والتعليم وإعداد النشء للحياة المستقبلة . فهى إذن أمور اجتماعية خالصة .

والآخر : كثرة استخدام الكبار فى جيل ما لبعض المفردات فى غير ما وضعت له عن طريق التوسع أو المجاز لدواع اجتماعية خاصة . فقد يكثر استخدم الكلمة لداع من هذه الدواعى فى جيل ما فى ناحية معينة من نواحى دلالتها أو فى معنى مجازى تربطه بمعناها الأصلى بعض العلاقات ، فيعلق المعنى الخاص أو المجازى وحده بأذهان الصغار ، ويتحول بذلك مدلول الكلمة إلى هذا المعنى الجديد . وإليك مثلا كلمات الصلاة والحج ، والرث ، والمدام ، والنجعة ، والمجد ، والأفن ،

والوغى ، والغفران ، ومحل الأدب ... : فقد كانت هذه الكلمات تطلق فى الأصل على الدعاء ، والاتجاه ، والخسيس من كل شيء ، وكل ما سكن ودام ، وطلب الغيث ، وامتلاء بطن الدابة بالعلف ، وقلة لبن الناقة ، واختلاط الأصوات ، والستر ، وحيث يلزم الأدب .. ، ثم كثر استخدامها فى عصر ما لدواع اجتماعية خاصة ، فى معانى فريضة الصلاة ، وقصد البيت الحرام ، والخسيس مما يلبس أو يفرش فحسب ، والخمر ، وطلب أى شيء ، والعظمة ، ونقص العقل ، والحرب ، والصفح ، ومحل قضاء الحاجة .. ، فعلقت هذه المعانى المجازية وحدها بأذهان الصغار ، وتحولت إليها مدلولات هذه الكلمات فأصبحت حقيقة فيها . وإليك مثلا آخر كلمة saoul الفرنسية ، فقد كان معناها فى الأصل « الشبعان » من الطعام ، ثم كثر استخدامها فى عصر فى النشوان من الخمر عن طريق المجاز والتهكم والتحرج من استخدام الكلمة الصرحية فى هذا المعنى وهى كلمة ivre ، فعلق هذا المعنى الجديد وحده بأذهان الصغار فى هذا الجيل ، وتحول إليه مدلول هذه الكلمة ، فأصبحت صريحة فيه[١] ، وانقرض معناها القديم .

وإلى هذا العامل يرجع أهم الأسباب فى تحول الكلمات إلى معان كانت مجازية فى الأصل وفيما يعترى المدلولات فى نطاقها من سعة أو ضيق . بل إن طائفة من العلماء ، على رأسها العلامة Herzng ، قد رجعت إلى هذا العامل وحده كل ما يحدث من تطور فى الدلالة[٢] .

* * *

فالدعائم التى يقوم عليها التطور اللغوى الناشيء عن هذين الأمرين وما إليهما لا تختلف فى شيء عن الدعائم التى يعتمد عليها التطور الناشيء عن العوامل المشار إليها فى الفقرات الثلاث السابقة . فكلا التطورين يرجع إلى ظواهر الاجتماع ، وتدعو إليه مقتضيات الحياة الاجتماعية . وكل ما بينهما من فرق أن التطور الناشيء عن هذين الأمرين يحدث فى أثناء انتقال اللغة من السلف إلى الخلف ، على حين أن

---

(١) لا تقل كلمة saoul الآن عن كلمة ivre فى صراحتها فى التعبير عن النشوان ، إن لم تزد عنها فى ذلك .

(٢) Meillet, dans «L'Année Sociologique», T. 9, P.P 6,7; et Herzog. «der Romanischen Phiologie».

التطور الناشىء عن العوامل المشار إليها فى الفقرات الثلاث السابقة يعتور اللغة فى مراحل أخرى من مراحل حياتها .

* * *

٢ — وأما العوامل غير الاجتماعية التى تؤدى إلى تطور اللغة فى أثناء انتقالها من السلف إلى الخلف ، فيرجع أهمها كذلك إلى أمرين يؤثر كلاهما فى تطور الأصوات خاصة :

أحدهما : التطور الطبيعى المطرد لأعضاء النطق فى الانسان (قانون روسلو Rousselot) . فمن المقرر أن هذه الأعضاء غير جامدة على حالة واحدة ، وأنها فى تطور طبيعى مطرد فى بنيتها واستعدادها ومنهج أدائها لوظائفها ، وأنها فى كل جيل تختلف عنها فى الجيل السابق له . فحناجرنا وحبالنا الصوتية وألسنتنا وحلوقنا وسائر أعضاء نطقنا تختلف عما كانت عليه عند آبائنا الأولين إن لم يكن فى بنيتها الطبيعية فعلى الأقل فى استعداداتها[1] ، بل أنها لتختلف عما كانت عليه عند آبائنا المباشرين . غير أن هذا التطور يسير ببطء وتدرج حتى إن آثاره لا تكاد تحس بين جيلين متتابعين ، ولكنها تبدو واضحة كل الوضوح بالموازنة بين جيلين من شعب واحد تفصلهما حقبة كبيرة من الزمن .

ومهما يكن من شىء ، فإن كل تطور يحدث فى أعضاء النطق أو فى استعدادها ، مهما كان مبلغه ، يتبعه تطور فى أصوات الكلمات ، فتنحرف هذه الأصوات عن الصورة التى كانت عليها إلى صورة أخرى أكثر منها ملاءمة مع الحالة التى انتهت إليها أعضاء النطق .

ومن ثم لم يكن بد من أن يحدث فى أصوات كل لغة إنحراف ما فى أثناء انتقالها من السلف إلى الخلف ، تبعاً لما يمتاز به أولئك عن هؤلاء من خصائص ناشئة عن التطور الطبيعى فى أعضاء النطق ، ولما تقضى به سنن الطبيعة من

---

(١) يكاد العلماء يجمعون على أن أعضاء النطق فى الشعب الواحد والظروف المتشابهة تتطور استعداداتها وتختلف باختلاف الأجيال والعصور . أما تطور بنيتها الطبيعية فى الشعب الواحد والظروف المتشابهة فقد اختلف العلماء بصدده : فمن منكر له ؛ ومن قائل به . والمذهب الأخير هو الأدنى إلى الصواب .

اختلاف هذه الأعضاء فى كل جيل عنها فى الجيل السابق له .

وقد كان لكشف هذا القانون أجل أثر فى نهضة البحوث اللغوية المتعلقة بالتطور الصوتى ، وفى القضاء على كثير من النظريات الفاسدة القديمة[1] .

وقد جرت العادة بنسبة هذا القانون إلى العلامة روسلو Rousselot[2] ، لأنه وقف قسطاً كبيراً من جهوده على دراسته ، وتدعيمه بالأدلة القاطعة ، وتحرى حقائقه بطرق البحث القديمة وبطريقة جديدة لم يكد يسبقه أحد إليها وهى طريقة استخدام الأجهزة فى دراسة الأصوات اللغوية ، التى اشتهرت باسم طريقة « الفونيتيك التجريبى Phonétique expérimentale »[3] ، ومع ذلك فإن روسلو لم يكن أول من اهتدى إلى هذا القانون ، بل قد سبقه إلى ذلك عدد كبير من الباحثين من أشهرهم العلامة هرمان بول Herman Pual[4] .

وليس من الميسور وضع قواعد عامة مضبوطة لاتجاهات هذا التطور ، لأن الأمر يختلف اختلافاً كبيراً باختلاف اللغات والبيئات والشعوب . فبحسبنا أن نضرب أمثلة من الظواهر الصوتية المترتبة عليه .

فمن ذلك ما حدث فى اللغة العربية بصدد أصوات الجيم والثاء والذال والظاء والقاف . فقد أصبحت هذه الأصوات ثقيلة على أعضاء النطق فى كثير من البلاد العربية ، وأصبح لفظها على الوجه الصحيح يتطلب تلقيناً خاصاً ومجهوداً إرادياً وقيادة مقصودة لحركات المخارج . ولعدم ملاءمتها مع الحالة التى انتهت إليها أعضاء النطق فى هذه البلاد أخذت تتحول منذ أمد بعيد إلى أصوات أخرى قريبة منها . فالصوت الأول (الجيم) الذى كان ينطق به معطشاً بعض التعطيش فى العربية الفصحى قد تحول فى معظم المناطق المصرية إلى جاف (جيم غير معطشة) ، وفى معظم المناطق

---

(١) انظر بعض هذه النظريات فى كتابنا « علم اللغة » الطبعة السادسة ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٢) انظر كتابه « دراسة التطورات الصوتية فى اللغة » Etudes sur les Changements phonétiques وقد ظهر هذا الكتاب عام ١٨٩٠ .

(٣) انظر تفاصيل هذه الطريقة بكتابنا « علم اللغة » ص ٣٨ : ٤١ الطبعة السادسة .

(٤) انظر تفصيل ذلك بكتابنا « علم اللغة » ص ٥٥ ، ٥٦ الطبعة السادسة .

المناطق المصرية وفى بلاد اخرى (فيقال : توب ، تلج ، تعلب ، تعبان ، تفل ، تئيل ، تلت ، تلاتة ، تمن ، تمانية ، تور ، اتنين ، نتر ، جتة ، عتة ، عتر .. الخ ، بدلا من : ثوب ، ثلج ، ثعلب ، ثعبان ، ثفل ، ثقيل ، ثلث ، ثلاثة ، ثمن ، ثمانية ، ثور ، اثنان ، نثر ، جثة ، عثة ،عثر .. الخ)[٢] . والذال قد تحولت فى كثير من المناطق العربية إلى دال فى معظم الكلمات (فيقال : داب ، دراع ، ديب ، ده ، دى ، دبل ، دبح ، دبان ، دأن ، أدان ، ودن ، دهب ، ديل ... الخ ، بدلا من : ذاب ، ذراع ، ذئب ، ذا ، ذى ، ذبل ، ذبح ، ذُبَّان ، ذقن ، أذان ، أذن ، ذهب ، ذيل .. الخ) ؛ وإلى زاى فى بعض الكلمات فيقال مثلا : زنب ، زهن ، زكى ، بزر ، رزالة .. الخ ، بدلا من : ذنب ، ذهن ، ذكى ، بذر ، رذالة ... الخ) . والظاء قد تحولت إلى ضاد فى معظم الكلمات (فيقال : ضلام ، ضفر ، ضل ، ضهر .. الخ ، بدلا من : ظلام ، ظفر ، ظل ، ظهر .. الخ) ؛ وإلى زاى مفخمة فى بعض الكلمات (كما ينطق فى عامية المصريين بكلمات : ظالم ، ظريف ، أظن ، حظ .. الخ[٣] . والقاف تحولت إلى همزة فى بعض اللهجات المصرية والسورية (فيقال : أط ، ألت ، أبل ، عأد ، نطأ .. الخ بدلا من : قط ، قلت ، قبل ، عقد ، نطق ... الخ) ؛ وإلى جاف (جيم غير معطشة) فى معظم اللهجات العامية بمصر وغيرها من البلاد العربية (فيقال : جط ، جلت ، جبل ، عجد ، نطج .. الخ)[٤] .

---

(١) لا يزال ينطق بصوت الجيم نطقاً صحيحاً فى عامية العراق والسودان وبعض المناطق المصرية ، وخاصة فى مديرية الشرقية .

(٢) تحول هذا الصوت فى كلمات قليلة إلى سين أو صاد : ثواب ينطق بها أحياناً سواب أو صواب .

(٣) لا يزال ينطق بأصوات الثاء والذال والظاء نطقاً صحيحاً فى عامية العراق وشمال أفريقيا وخاصة فى ليبيا وفى القبائل العربية النازحة إلى مصر (الفوايد ، الرماح ، البراعصة ، أولاد على ، الضعفاء ، سمالوس .. الخ) .

(٤) لايزال صوت القاف محتفظاً بنطقه الصحيح فى كثير من الكلمات فى عامية العراق والجزائر والمغرب وقسم من اليمن والشام وعامية رشيد . وكان مستعملا منذ عهد غير بعيد فى بعض مناطق بنى سويف ، وقد سمعت أنا نفسى بعض شيوخ أسرتى (ببلدة الحمام محافظة بنى سويف) يتكلمون بالقاف ، ولايزال العامة فى هذه المناطق يتكلمون بالقاف حينما يروون عبارة منسوبة إلى أجدادهم فى الأقاصيص الشعبية وما إليها ، وهذا يدل على أن صوت القاف لم ينقرض لديهم إلا منذ أمد قريب .

ومثل هذا حدث فى كثير من اللغات الأوروبية . فمن ذلك ما لوحظ بصدد تطور الراء الفرنسية فى منطقة باريس وما إليها . فقد كان ينطق بها قديماً فى صورة مرققة ، ثم أخذت تنحرف عن مخرجها تبعاً لتطور أعضاء النطق واستعدادها حتى قربت من آخر الحلق ، فتحولت إلى صوت بين الراء والغين ، وأصبح صوتها القديم ثقيلا على الألسنة يتطلب لفظه من أهل هذه المناطق مجهوداً إرادياً وقيادة مقصودة لحركات المخارج .

هذا ، ولا يقتصر أثر العامل الذى نحن بصدده على تحريف بعض أصوات الكلمة عن مخارجها الأولى ، بل قد يؤدى إلى انقراض الكلمة برمتها انقراضاً تاماً من لغة المحادثة . وذلك أن ثقل الكلمة على اللسان ، أو عدم تلاؤم أصواتها مع الحالة التى انتهى إليها تطور أعضاء النطق فى جيل ما ، كثيراً ما يعرضها هى نفسها للزوال . وإلى هذا يرجع السبب فى انقراض كثير من الكلمات العربية من لغات التخاطب العامية فى العصر الحاضر .

والآخر : الأخطاء السمعية التى تنشأ عن ضعف بعض الأصوات والتى تؤدى إلى سقوط هذه الأصوات فى أثناء انتقال اللغة من السلف إلى الخالف (قانون روسلو ومييه Rousselot-Meillet) . فقد يحيط بالصوت بعض مؤثرات تعمل على ضعفه بالتدريج . فيتضاءل جرسه شيئاً فشيئاً ، حتى يصل فى عصر ما إلى درجة لا يكاد يتبينه فيها السمع . فحينئذ يكون عرضة للسقوط فى لغة الخلف . وذلك أن معظم الصغار فى هذا العصر لا يكادون يتبينونه فى نطق الكبار ، فينطقون بالكلمات مجردة منه ، ولا يفطن الآباء لسقوطه فى لغة أولادهم للسبب نفسه الذى من أجله لم يفطن الأولاد لوجوده فى لغة آبائهم .

ويرجع أكبر قسط من الفضل فى توضيح هذا العامل وبيان آثاره إلى الأستاذين روسلو ومييه Rousselot-Meillet ؛ ولذلك تنسب إليها نظريته[١] .

ولا يخفى ما لهذا العامل من أثر بليغ فى تطور اللغة من ناحيتها الصوتية . فإليه

---

(١) V. Dauzat : Les Patois, p. 118; Meillet : Linguistique Générale p. 79; Delacroix. Le Langage et la Pensée, p. 180 et suiv.

يرجع السبب فى سقوط كثير من الأصوات الواقعة فى أواخر الكلمات فى عدد كبير من اللغات الهندية ـــ الأوروبية الحديثة . ومن ثم نرى اختلافاً بينا فى هذه الناحية بين رسم الكلمة ونطقها فى هذه اللغات . فكثيراً ما ترسم فى آخر الكلمة زوائد لا ينطق بها فى العصر الحاضر ، وإن كانت تمثل أصوات الكلمة فى أدوارها الأولى . ومعظم أصوات اللين المتطرفة فى اللغة اللاتينية قد انقرضت فى اللغات المنشعبة عنها(١) . ففى البروفنسية Provençale والفرنسية لم يكد يبقى شيء منها(٢) ، وفى الأسبانية سقط من هذه الأصوات صوتان وهما El .

وإلى هذا العامل (مع عوامل أخرى سيأتى ذكرها فى الفقرة السادسة من هذا الفصل) يرجع السبب كذلك فيما حدث فى اللغة العربية بصدد أصوات المد القصيرة (المسماة بالحركات والتى يرمز إليها بالفتحة والكسرة والضمة) والطويلة (الألف والياء والواو) وبعض الأصوات الساكنة الواقعة فى أواخر الكلمات . ففى جميع اللهجات العامية المنشعبة عن العربية (عاميات مصر والسودان والحجاز والعراق والشام وفلسطين واليمن وشمال أفريقيا .. الخ) قد انقرضت فى النطق أصوات المد القصيرة الواقعة فى أواخر الكلمات ، سواء فى ذلك ما كان منها علامة إعراب وما كان منها حركة بناء . فينطق الآن فى هذه اللهجات بجميع الكلمات مسكنة الأواخر . ولعل هذا هو أكبر انقلاب حدث فى اللغة العربية ؛ فقد أتى جميع الكلمات فانتقصها من أطرافها ، وجردها من علامات إعرابها الدالة على وظائفها فى الجملة ، وقلب قواعدها القديمة رأساً على عقب . وقد تضاءلت كذلك أصوات المد الطويلة الواقعة فى أواخر الكلمات العربية فى عامية المصريين وغيرهم ، حتى كادت تنقرض تمام الانقراض ، سواء فى ذلك ما كان منها داخلا فى بنية الكلمة (رمى ، يرمى .. الخ) وما كان خارجاً عنها (ضربوا ناموا .. الخ) . فيقال مثلا فى عامية المصريين : « رامِ وعيسَ ومصطفَ أبُ حسينْ سافرُ يوم الخميس لجرجَ » بدلا من « رامى وعيسى ومصطفى أبو حسين سافروا يوم الخميس إلى جرجا » . وفى معظم اللهجات العامية المنشعبة عن العربية قد انقرض كذلك فى النطق من أواخر

---

(١) يستثنى من ذلك الايطالية ، فقد احتفظت بمعظم هذه الأصوات .

(٢) انقرضت جميعها فى الواقع ما عدا صوت a فى بعض صوره وما عدا حالات شاذة .

الكلمات التنوين ونون الأفعال الخمسة والهمزة والهاء المتطرفتان[1]. فيقال مثلا فى عامية المصريين : « محمد ولدْ مطيعْ ؛ الأولاد بيلعبُ ؛ الهوَ شديدْ ؛ انتظرتُ ساعَ كامْلَ » بدلا من « محمدٌ ولدٌ مطيعٌ ؛ الأولاد يلعبون ؛ الهواء شديد ؛ انتظرته ساعة كاملة » .

(١) التاء المربوطة حكمها فى ذلك حكم الهاء المتطرفة كما يظهر من المثال المذكور فيما بعد .

(٥)

العوامل الطبيعية

نعنى بهذه العوامل ما يشمل الظواهر الجغرافية والفيزيولوجية والبيولوجية والاتنولوجية .. وما إلى ذلك من الأمور التى تتصل بالبيئة الطبيعية أو بوظائف الأعضاء أو بتطور الناحية الجسمية فى الانسان أو باختلاف الشعوب فى خواصها الوراثية.. وهلم جرا .

ومع اختلاف أنواع هذه الطائفة بعضها عن بعض ، فإنها تتفق جميعاً فى أنها عوامل غير اجتماعية ، أى لا تنبعث عن ظواهر الاجتماع ولا تنشأ عن العقل الجمعى .

والتطور اللغوى الناشىء عن هذه الطائفة من العوامل ، تبدو بعض آثاره فى مرحلة انتقال اللغة من السلف إلى الخلف ، ويبدو بعضها الآخر فيما عدا ذلك من المراحل .

وقد عرضنا فى الفقرة السابقة لأهم مظاهرها فى مرحلة انتقال اللغة من السلف إلى الخلف[١] . وسنقتصر فى هذه الفقرة على الكلام على مظاهرها فيما عدا ذلك .

* * *

ترجع أهم هذه المظاهر إلى أمرين رئيسيين : أحدهما البيئة الجغرافية ؛ والآخر اختلاف الشعوب بعضها عن بعض فى خواصها الوراثية المتعلقة بأعضاء النطق .

١ ــ فأما البيئة الجغرافية فإن لها أثراً ذا بال فى خصائص اللغة وفى كثير من مظاهر التطور اللغوى . وذلك أن ما يحدث بين حضارة الأمة ولغتها من توافق

(١) انظر ص ٤٩ ــ ٥٤

وانسجام يحدث مثله بين لغتها ومظاهر بيئتها الجغرافية . فجميع خصائص الاقليم الطبيعية تنطبع فى لغة سكانه ، وتتجه بها فى سبيل التطور وجهة خاصة . ومن أجل ذلك نشأت فروق كبيرة فى مختلف مظاهر اللغة بين سكان المناطق الحارة والمعتدلة والباردة ، وبين سكان المناطق الجبلية وسكان الصحراء وسكان الأودية ، وبين سكان المناطق الشمالية والوسطى والجنوبية ، ونشأت فروق غير يسيرة بين أفراد الفصيلة اللغوية الواحدة ، بل بين لهجات اللغة الواحدة . ومن أجل ذلك أيضاً غزرت فى كل لغة المفردات التى تدور حول مظاهر بيئتها الجغرافية ، ودقت دلالاتها ، وانبثت فى شتى فنون القول . ومن أجل ذلك أيضاً كان قسط كبير من مادة الخيال والتشبيه فى كل لغة مستمداً من مظاهر البيئة وما اختصت به طبيعة البلاد . ومن أجل ذلك أيضاً تمثل فى أسلوب اللغة وفنونها الأدبية ما تختص به بيئتها الطبيعية من تلبد أو صفاء ، وقبح أو جمال ، وصخب أو هدوء ، وتنوع أو اطراد ، وتقلب أوثبات ، وما ينبعث عنها من رخاوة أو قوة ، وخمول أو نشاط ، وخشونة أو نعيم . ولهذا كله يستطيع الباحث معرفة البيئة الأولى التى نشأت فيها لغة ما على ضوء مفردات هذه اللغة ، وغزارتها فى بعض النواحى وجدبها فى نواح أخرى ، وما تجنح إليه أساليبها ومادتها فى الخيال والتشبيه وخواص آدابها ... وما إلى ذلك .

وغنى عن البيان أن البيئة الجغرافية لا تستقل بإحداث أى أثر من الآثار السابقة ، بل يتضافر معها على ذلك عوامل أخرى معظمها اجتماعى ، وأن التطور اللغوى ، حينما يتأثر بالبيئة الجغرافية ، لا يتأثر بها فى صورة مباشرة ، وإنما ينجم عن ظواهر اجتماعية أو نفسية كان لهذه البيئة دخل ما فى نشأتها أو فيما تسلكه من مناهج .

٢ــ وأما اختلاف الشعوب بعضها عن بعض فى خواصها الوراثية المتعلقة بأعضاء النطق ، فإن له كذلك أثراً لا يستهان به فى خواص اللغة وفى كثير من مظاهر التطور اللغوى ، وخاصة ما يتعلق منها بناحية الأصوات . وذلك أن أعضاء النطق تختلف فى بنيتها واستعدادها ومنهج تطورها تبعاً لاختلاف الشعوب وتنوع الخواص الطبيعية المزود بها كل شعب والتى تنتقل عن طريق الوراثة من السلف إلى الخلف . حقاً إن أعضاء النطق تظل مرنة كل المرونة طوال المرحلة الأولى من مراحل

الطفولة . فمن المشاهد أن الطفل فى هذه المرحلة لا يستعصى عليه اكتساب أى لغة عن طريق المحاكاة ، مهما كانت هذه اللغة بعيدة عن لغة أبويه ، بل فى استطاعته أن يكتسب بهذه الوسيلة عدة لغات أجنبية إذا أتيحت له فرص الاختلاط بالمتكلمين بها ، ويصل فى إجادتها جميعاً إلى درجة لا يستطيع معها أكبر خبير فى اللغات أن يميزه من أهلها . ولكن ليس من شك فى أنه كلما تقدمت به السن ظهرت عنده الاستعدادات الصوتية الكامنة الخاصة بأمته ، ورسخت لديه عاداتها الكلامية ، فتفقد أعضاء نطقه مرونتها شيئاً فشيئاً ، وتتشكل بالشكل الذى فطرت عليه فى شعبه ، وتسلك فى تطورها منهجاً خاصاً يختلف عن المنهج الذى تسلكه أعضاء النطق فى الشعوب الأخرى .

ولا يخفى ما يترتب على اختلاف الشعوب بهذا الصدد من آثار خطيرة فى التطور الصوتى فى مختلف اللغات .

فإلى هذا يرجع بعض السبب فى اختلاف اللغة الواحدة فى تطورها الصوتى باختلاف الشعوب الناطقة بها ، وذلك أنها تسلك فى تطورها الصوتى عند كل شعب منها مسلكاً يتفق مع ما فطرت عليه أعضاء نطقه فى طبيعتها واستعدادها ومنهج ارتقائها . فاللاتينية مثلا قد سلكت فى تطورها الصوتى عند كل شعب من الشعوب الناطقة بها مسلكاً يختلف عن مسلكها فى الشعوب الأخرى ؛ فلم تلبث أن انشعبت من جراء ذلك إلى عدة لغات (الفرنسية ، الايطالية ، الاسبانية ، البرتغالية ، لغة رومانيا .. الخ) . واللغة العربية قد اتجهت كذلك فى تطورها الصوتى عند كل شعب من الشعوب الناطقة بها وجهة تختلف عن وجهتها عند غيره ؛ فلم تلبث أن تولد عنها من جراء ذلك عدة لهجات (عامية العراق ، عامية الشام ، عامية نجد والحجاز ، عامية اليمن ، عامية مصر ، عامية المغرب .. الخ) . حقاً إن كثيراً من مظاهر هذا الاختلاف يرجع إلى عوامل اجتماعية أو نفسية أو آثار البيئة الجغرافية(١) ؛ ولكن ليس من شك فى أن بعض هذه المظاهر يرجع إلى العامل الشعبى الذى نحن بصدد الكلام عنه .

---

(١) انظر ص ١٣ — ٢٩ ، ٥٥ — ٥٦ .

وعلى هذا العامل يقع كذلك قسط من التبعية فيما يصيب اللغة من تحريف فى أصواتها حينما تنتقل من شعب إلى شعب آخر[1] ؛ وذلك أنها تتشكل عند الشعب المنتقلة إليه فى الصورة التى تتفق مع ما فطرت عليه أعضاء نطقه وتكونها واستعدادها ، فتبعد بذلك عن أصولها الأولى ، ويزداد بعدها هذا كلما اتسعت مسافة الخلف بين أصول الشعبين . فما أصاب لغة الصقالبة من تحريف فى ألسنة البلغاريين يفوق كثيراً ما أصابها عند غيرهم ؛ وذلك لأن الأصل الفينى Finois الذى ينحدر منه البلغاريون لاتربطه صلة قريبة بالأصل السلافى الذى ينتمى إليه الصقالبة . وما أصاب الأصوات اللاتينية من تحريف فى اللغة الفرنسية يفوق كثيراً ما أصابها فى اللغة الإيطالية ؛ وذلك لأن الإيطاليين أقرب رحماً إلى قدماء الرومان من الفرنسيين ، ففيهم يغلب الدم اللاتينى ، بينما يغلب فى الفرنسيين الدم السلتى والجرمانى . ولهجات القسم الجنوبى من فرنسا كالجسكونية والبروفنسية .. الخ .. Gascon, Provençale أقرب إلى أصولها اللاتينية من لهجات القسم الشمالى ، وذلك أن الدماللاتينى فى سكان الجنوب أغزر منه فى سكان الشمال . ولهجات الجنوب نفسها تختلف فى مبلغ قربها إلى اللغة اللاتينية تبعاً لاختلاف الناطقين بها فى مبلغ قربهم إلى الأصل اللاتينى . ولذلك كانت البروفنسية Provençal أقرب إلى اللاتينية من الجسكونية Gascon لأن البروفنسيين أدنى إلى اللاتين من الجسكونيين . ولهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر (البراعصة ، الفوايد ، الرماح ، الجوازى ، أولاد على ، سمالوس ..الخ) أدنى فى ناحيتها الصوتية إلى العربية الفصحى من لهجات المصريين أنفسهم ، وذلك لأنهم أقرب إلى العرب من المصريين .

وعلى ضوء هذا العامل يمكن كذلك قياس مسافة الخلف بين « اللهجات المحلية » (وهى اللهجات التى يتكلم بها فى منطقة لغوية واحدة كلهجات البلاد المصرية) والوقوف على بعض الأسباب التى تؤدى إلى بعدها بعضها عن بعض[2].

---

(١) نقول : « قسط من التبعة » لا كل التبعة ؛ لأن لهذه الظاهرة أسباباً أخرى كثيرة غير هذا العامل (أسباباً إجتماعية ونفسية وجغرافية .. الخ) سنعرض لها عند كلامنا على صراع اللغات فى الفصل الثانى .

(٢) نقول « بعض الأسباب » لأن لهذه الظاهرة أسباباً أخرى كثيرة غير هذا العامل (أسباباً إجتماعية وجغرافية .. الخ) ، سنعرض لها عند كلامنا على تفرغ اللغة فى الفصل الثالث .

فالمشاهد أن مبلغ اختلاف هذه اللهجات بعضها عن بعض فى أصواتها يتبع إلى حد كبير مبلغ اختلاف الناطقين بها بعضهم عن بعض فى أصولهم الشعبية . فكلما كان هؤلاء متجانسين فى أصولهم ضاقت مسافة الخالف بين لهجاتهم فى ناحيتها الصوتية ؛ وكلما تعددت الأصول الشعبية التى ينتمون إليها اتسعت هذه المسافة . فلهجات المصريين لا تختلف كثيراً بعضها عن بعض فى هذه الناحية ؛ وذلك لتجانسهم فى الأصول التى انحدروا منها . ولهجات المنطقة الشمالية بفرنسا (منطقة باريس وما إليها)[١] تختلف كثيراً عن لهجات المنطقة الجنوبية منها (طولون ، نيس .. الخ ، Toulon, Nice) ، ولكن كلتا المنطقتين تحوى مجموعة متشابهة من اللهجات ؛ وذلك لأن سكان المنطقة الشمالية يختلفون فى أصولهم الشعبية عن سكان المنطقة الجنوبية ؛ ولكن كلتا المنطقتين تضم من السكان مجموعة متجانسة فى هذه الأصول . ولهجات المناطق الوسطى بفرنسا يختلف بعضها عن بعض اختلافاً غير يسير ؛ وذلك لتعدد الأصول الشعبية التى ينتمى إليها سكان هذه المناطق[٢] .

---

(١) انقرض الآن معظم هذه اللهجات وحلت محلها الفرنسية الحديثة .

(٢) V. Dauzat; Vie du Langage P. 47 .

هذا ، ومن الخطأ المبالغة فى أثر هذا العامل كما حاول ذلك بعض الباحثين . ولا أدل على أن أثره ليس بالدرجة التى تصورها هؤلاء من أن الطفل فى أية أمة يستطيع بسهولة أن يجيد لغة أمة أخرى عن طريق المحاكاة إذا أحيط فى دور طفولته بأفراد يتكلمون هذه اللغة كما سبقت الاشارة إلى ذلك فى صفحة ٥٧

(٦)
العوامل اللغوية

تتفق العوامل التى تكلمنا عنها فى الفقرات السابقة جميعاً فى أنها أمور خارجة عن اللغة التى تتأثر بها . أما العوامل التى سنتكلم عنها فى هذه الفقرة فهى أمور ذاتية فى اللغة نفسها . وذلك أن بنية اللغة ، ومتنها ، وأصواتها ، وعناصر كلماتها ، وقواعدها .. كل أولئك قد ينطوى على أمور ذاتية تعمل هى نفسها فى صورة آلية على التطور اللغوى وعلى توجيهه وجهة خاصة .

وتنقسم هذه العوامل من حيث الناحية اللغوية التى تنصب عليها أثرها إلى قسمين : عوامل تؤثر فى تطور الأصوات ؛ وعوامل تؤثر فى تطور الدلالة .

العوامل اللغوية المؤثرة فى تطور الأصوات :

فأما العوامل اللغوية التى تؤثر فى تطور الأصوات فيرجع أهمها إلى ثلاثة أمور : أحدها تفاعل أصوات الكلمة بعضها مع بعض ؛ وثانيها موقع الصوت فى الكلمة ؛ وثالثها تناوب الأصوات وحلول بعضها محل بعض . وسنتكلم فيما يلى على كل واحد منها على حدة .

أولا ــ تفاعل أصوات الكلمة بعضها مع بعض :

يحدث بين الأصوات المتجاورة والمتقاربة فى الكلمة من ظواهر التفاعل أنواع كثيرة يؤدى كل نوع منها إلى نتائج ذات بال فى التطور الصوتى . ومن أهم ماسجله الباحثون بهذا الصدد الأمور الآتية :

١ ـــ التفاعل بين الأصوات السكنة (ونعنى بها ما يقابل أصوات اللين) :

يحدث أحياناً بين الصوتين المتجاورين أو المتقاربين فى الكلمة مثل ما يحدث بين المواد المحملة بالكهرباء . فتجاور مادتين من هذه المواد يحدث بينهما تجاذباً إذا كانتا مختلفتين فى نوع كهربائهما بأن كانت إحداهما موجبة والأخرى سالبة ، وتنافرا إذا كانتا متحدتين فيه ، بأن كانت كلتاهما موجبة أو سالبة . وكذلك يفعل أحياناً التجاور أو التقارب بين الصوتين .

(أ) فإذا تجاور صوتان مختلفان فى مخارجهما أو تقاربا انجذب أحياناً كل منهما نحو الآخر ، فينتهى بهما الأمر إلى واحدة من النتائج الأربعة الآتية :

○ فتارة يلتصق أحدهما بالآخر ، فتنتقل الأصوات التى كانت تفصل بينهما إلى ما بعدهما (ظاهرة النقل المكانى Metathèse)[١] ؛ كما حدث لحرفى b.r فى كلمة berbis إذ تحولت إلى brebis ، وفى كلمة abeurver إذ تحولت إلى abreuver .

○ وتارة يتحول أحدهما إلى صوت من نوع الصوت الآخر (ظاهرة التشاكل assimilation)[٢] . فأحياناً يتحول الأول إلى نوع الصوت الثانى كما حدث فى cercher إذ تحولت إلى chercher ؛ وكما حدث فى اللام الشمسية[٣] فى اللغة العربية إذ تحولت فى النطق إلى صوت الحرف الذى يليها (التقوى ، الثوب ، الدار ، الذئب ، الرحمة ، الزهر ، السماء ، الشمس ، الصوت ، الضرر ، الطول ، الظلم ، الناب) ؛ وكما حدث فى الكلمة العربية « شمس » إذ تحولت فى بعض اللهجات العامية إلى « سمس » . وأحياناً يتحول الثانى إلى نوع الصوت الأول كما حدث فى

---

(١) ليس « النقل المكانى Métathèse » مقصوراً على الحالة التى نحن بصدد الكلام عليها ؛ بل يطلق إصطلاحاً على كل حالة ينتقل فيها صوت أو أكثر من موضعه فى الكلمة إلى موضع آخر كما سيأتى بيان ذلك فى ص ٧٠ .

(٢) استخدمنا كلمة assimilation فى معناها الواسع الذى يشمل التفاعل بين صوتين متجاورين ؛ لأنها لا تطلق فى معناها الاصطلاحى الضيق إلا على التفاعل بين صوتين يفصل بينهما فاصل .

(٣) وهى لام التعريف المتبوعة بأحد الحروف الآتية : ت ث د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ن .

gamba, render إذ تحولا إلى gamma, renner[1] ، وكما حدث فى الكلمة العربية « شمس » إذ تحولت فى بعض لهجات الصعيد إلى « شمش » .

○ وتارة يمتزجان معاً ، فيتكون من امتزاجهما صوت ثالث به صفات من كليهما ؛ كما حدث فى جميع الكلمات التى تجاور فيها صوتا l.y ، إذ تحول هذان الصوتان فى الفرنسية إلى صوت واحد يجمع بين صفتيهما وهو صوت l,mouillé .

○ وأحياناً يتلاشى أحدهما فى الآخر : فيبقى الثانى وحده ، كما حدث فى الكلمة اللاتينية accapter إذ تحولت فى الفرنسية إلى acheter ؛ أو يبقى الأول وحده ، كما حدث فى الكلمة اللاتينية cliave إذ تحولت فى الايطالية chiave (ينطق بها Kyave)[2] .

(ب) وإذا تجاور صوتان متحدان أو تقاربا فإنهما يتنافران أحياناً ، فينتهى بهما الأمر إلى واحدة من النتائج الثلاث الآتية :

○ فتارة يتحول صوت أحدهما إلى صوت مغاير للآخر (ظاهرة التباين dissimilation)[3] . ويقع هذا على ضربين : فأحياناً يتحول أولهما كما حدث فى orphaninus peregrinum ، إذ تحولا فى الفرنسية إلى orphelin, pelerin ؛ وأحياناً يتحول ثانيهما ، كما حدث فى الكلمة اللاتينية cribrum ، إذ تحولت فى الفرنسية إلى crible ، وكما حدث لصوتى اللام المشددة فى اللاتينية إذ تحول صوتها الثانى إلى ياء فى معظم الكلمات الاسبانية (castella تحولت إلى castilla وينطق بها castilya)[4] .

○ وتارة يسقط أحدهما فى النطق : كما حدث فى معظم الأصوات المشددة

---

(١) تحول الصوت الأول إلى نوع الصوت الثانى هو الغالب فى هذه الحالة V. Dauzat, La vie du Langage p.p 57, 79 .

(٢) انقراض الأول وبقاء الثانى هو الغالب فى هذه الحالة V. Dauzat, op.cit 57,78 .

(٣) استخدمنا كلمة dissimilation فى معناها الواسع الذى يشمل التفاعل بين صوتين متجاورين ؛ لأنها لا تطلق فى معناها الاصطلاحى الضيق إلا على التفاعل بين صوتين يفصل بينهما فاصل .

(٤) تحول الأول إلى صوت مغاير للثانى هو الغالب فى هذه الحالة V. Dauzat. op cit. 75.79 .

فى اللاتينية ، إذ تحولت فى النطق الفرنسى والبرفنسى provençal والاسبانى إلى أصوات مخففة(١) ؛ وكما حدث فى معظم الأصوات المشددة فى العربية إذ تحولت فى لهجات كثير من بلاد الشرقية إلى أصوات مخففة (فيقال مثلا : « كلْمى ، أمْها ، عمْها ، من كلْ بدْ » بدلا من : « كلّمى ، أمُّها ، عمُّها ، من كلِّ بدّ ») .

○ وتارة يتساقطان معاً ويحل محلهما صوت واحد غريب عنهما . كما حدث فى صوتى اللام المشددة فى اللاتينية ، إذ تحولا فى الجسكونية Gascon إلى تاء t فى حالة وقوعهما فى آخر الكلمة وإلى راء r فى حالة وقوعهما بين حرفى لين (فالكلمتان اللاتينيتان bellum, bella تحولا فى الجسكونية إلى bèt, ber)(٢) .

٢ ــ التفاعل بين أصوات اللين :

وتجاور صوتى لين أو تقاربهما فى الكلمة يجعلهما كذلك عرضة للتغير والانحراف .

○ فتارة يلتصقان بعد تباعدهما ، فتسقط الأصوات التى تفصلهما ، ويتكون منهما صوت لين مركب diphtongue ، كما حدث فى الكلمة اللاتينية regina إذ تحولت فى الفرنسية القديمة إلى reïne(٣) .

○ وتارة يتباعدان بعد التصاقهما ، فيقحم بينهما صوت ساكن (أى غير لين) لتسهيل النطق بهما ، كما حدث فى الكلمة الفرنسية القديمة pooir إذ تحولت فى الفرنسية الحديثة إلى pouvoir .

○ وتارة يتحول أحدهما إلى صوت لين آخر إذا كانا متحدين ، كما حدث فى الكلمة اللاتينية vicinus إذ تحولت فى لغة التخاطب عند الرومان إلى vecinus .

---

(١) وهذا فيما عدا اللام المشددة V. Dauzat op. cit 79 . ونقول « فى النطق الفرنسى .. » لأن معظمها لا يزال محتفظا بشكله القديم فى الرسم .

(٢) V. Dauzat op. cit 79 .

(٣) تحولت هذه فى الفرنسية الحديثة إلى reine التى ينطق بها rène خضوعاً لقانون « التناوب بين أصوات اللين » الذى سنتكلم عنه فى صفحة ٧١ وتوابعها .

○ وتارة يخرج أحدهما عن فصيلته خروجاً تاماً ، فيتحول إلى صوت ساكن[1] (ونعنى به ما يقابل أصوات اللين) ، كما حدث فى الكلمة اللاتينية plattea إذ تحولت plattsa[2]، وكما حدث فى اللهجات العامية لبعض المقاطعات الفرنسية (أوفرنى وفوريز ودوفينى Auvergne, Forez, Dauphiné) إذ تحولت فيها الكلمات التى من قبيل fialo. tialo إلى fsalo. tsala .

ثانياً ــ موقع الصوت فى الكلمة :

وموقع الصوت فى آخر الكلمة أو فى وسطها أو فى أولها يعرضه كذلك لكثير من صنوف التطور والانحراف .

١ ــ وأكثر ما يكون ذلك فى الأصوات الواقعة فى أواخر الكلمات سواء أكانت أصوات لين أم أصواتاً ساكنة (ونعنى بالساكنة ما عدا أصوات اللين) .

(أ) أما أصوات اللين فقد لوحظ أن وقوعها فى آخر الكلمة يجعلها فى الغالب عرضة للسقوط ، ويؤدى أحياناً إلى تحولها إلى أصوات أخرى .

فمن ذلك ما حدث فى اللغة العربية بصدد أصوات اللين القصيرة (المسماة بالحركات وهى الفتحة والكسرة والضمة) التى تلحق أواخر الكلمات . ففى جميع اللهجات العامية المتشعبة عن العربية (عاميات مصر والعراق والشام وفلسطين والحجاز واليمن والمغرب .. الخ) قد انقرضت هذه الأصوات جميعاً ، سواء فى ذلك ما كان منها علامة إعراب وما كان منها حركة بناء . فينطق الآن فى هذه اللهجات بجميع الكلمات مسكنة الأواخر (فيقال مثلا : « رجعْ عمرْ للمدرسهْ بعدْ ما خفْ من عياه » بدلا من « رجعَ عمرُ إلى المدرسةِ بعدَ ما خفَّ من إعيائه ») . ولعل هذا هو أكبر انقلاب حدث فى اللغة العربية ؛ فقد أتى جميع الكلمات فانتقصها من أطرافها ، وجردها من العلامات الدالة على وظائفها فى الجملة ، وقلب قواعدها

---

(١) يتحول إلى ذلك فى الغالب الصوت الأول منهما كما يظهر من الأمثلة التى سنذكرها .

(٢) تحولت هذه فى الفرنسية الى place .

القديمة رأساً على عقب .

ومن هذا القبيل كذلك ما حدث فى اللغة العربية بصدد أصوات اللين الطويلة (الألف والياء والواو) الواقعة فى آخر الكلمات . فقد تضاءلت هذه الأصوات فى عامية المصريين وغيرهم حتى كادت تنقرض تمام الانقراض ، سواء فى ذلك ما كان منها داخلا فى بنية الكلمة ، (رمى يرمى .. الخ) وما كان خارجاً عنها (ضربوا ناموا .. الخ) . فيقال مثلا فى عامية المصريين : « رامِ وعيسَ ومصطفَ أبُ حسين سافرُ يوم الخميس لجرجَ » بدلا من « رامى وعيسى ومصطفى أبو حسين سافروا يوم الخميس إلى جرجا » .

وما حدث فى اللغة العربية حدث مثله فى كثير من اللغات الأخرى . فمعظم أصوات اللين المتطرفة فى اللغة اللاتينية قد انقرضت فى اللغات المنشعبة عنها[١] . ففى الأسبانية سقط من هذه الأصوات صوتان وهما i, e[٢] ، وفى البروفنسية provençal والفرنسية القديمة لم يكد يبقى شىء منها[٣] . وبعض هذه الأصوات قد تحول إلى أصوات لين أخرى ؛ كما حدث لصوت a إذ تحول فى الفرنسية القديمة إلى «e» canta, chante, lenta, lente, fava, fève[٤] .

(ب) ووقوع الصوت الساكن (ونعنى به ما يقابل صوت اللين) فى آخر الكلمة يجعله كذلك عرضة للتحول أو السقوط .

فمن ذلك ما حدث فى اللغة العربية بصدد التنوين ونون الأفعال الخمسة والهمزة والهاء المتطرفتين[٥] . فقد انقرضت هذه الأصوات فى معظم اللهجات العامية المتشعبة عن العربية ، كما يظهر ذلك من الموازنة بين العبارات العربية المدونة فى

---

(١) يستثنى من ذلك الايطالية فقد احتفظت بمعظم هذه الأصوات .

(٢) يستثنى من ذلك كلمات قليلة بقى فيها أحد هذين الصوتين .

(٣) انقرضت جميعها فى الواقع ما عدا صوت a الذى سيأتى الكلام عنه وما عدا بعض حالات شاذة .

(٤) يستثنى من ذلك بعض كلمات قليلة . وقد حدث هذا التطور فى المدة المحصورة بين نهاية القرن الثامن وأوائل القرن الرابع عشر . انظر Dauzat, op. cit 142 .

(٥) التاء المربوطة حكمها فى ذلك حكم الهاء المتطرفة كما يظهر من المثال المذكور فيما بعد .

السطر الأول ونظائرها فى عامية المصريين المدونة فى السطر الثانى :

محمدٌ ولدٌ مطيعٌ ؛ الأولاد يلعبون ؛ الهواء شديد ؛ انتظرته ساعة كاملة .
محمدْ ولدْ مطيعْ ؛ الاولاد بيلعبُ ؛ الهوَ شديد ؛ انتظرتُ ساعَ كامْلَ .

ومن هذا القبيل كذلك حذف آخر الكلمة التى يوقف عليها فى عامية كثير من المناطق المصرية ، كبعض مناطق بنى سويف والشرقية ورشيد وغيرها فيقال مثلا : « إنت ياول » بدلا من « أنت يا ولد » ؛ « فين أخوك محمو » بدلا من « أين أخوك محمود » ؛ « إديل خمسأرو » بدلا من « أدله خمسة قروش »(١) .

وما حدث فى اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله فى كثير من اللغات الأخرى . فمعظم الأصوات الساكنة المختتمة بها الكلمات اللاتينية قد انقرضت فى النطق الفرنسى أو تحولت إلى أصوات ساكنة أخرى أضعف منها أو إلى أصوات لين .

أما الانقراض فلم يكد ينجو منه إلا القليل من أنواع هذه الأصوات (plumbum تحولت فى الفرنسية إلى plomb التى ينطق بها plon بدون صوت الباء الأخير ؛ campus تحولت فى الفرنسية إلى champ التى ينطق بها chan بدون صوت p الأخير ..(٢) الخ) . ومن ذلك أيضاً حذف علامة الجمع s فى النطق الفرنسى ، وبذلك أصبح المفرد وجمعه المختتم بصوت s سيين فى النطق ولا يختلفان إلا فى الرسم .

وأما تحولها إلى أصوات ساكنة ضعيفة فقد حدث فى كثير من الكلمات المنتهية بأصوات مدوية sonores مثل أصوات v, d, b إذ تحولت فى الفرنسية القديمة هذه الأصوات القوية إلى أصوات ضعيفة صامتة sourds مثل أصوات f, t, p

---

(١) سار على هذا الأسلوب كذلك بعض اللغات العربية الفصحى ، كلغة طيىء . وقد جرت عادة المؤلفين من العرب بتسميته قطعة طيىء (أى قطع اللفظ قبل تمامه) . فكان يقال مثلا فى لغتهم « يا أبا الحك » بدلا من يا أبا الحكم . ولم يكن هذا مقصوراً لديهم على المنادى بل كان عاماً فى جميع الكلمات .

(٢) V. Dauzat op.cit. 75,76 .

(navem, grandem تحولتا فى الفرنسية القديمة إلى nef, grant) . وقد جرت عادة العلماء أن يطلقوا على هذه الظاهرة اسم « توهين الصوت الساكن الأخير » assourdissement des consonnes sonores finales(١) .

وأما تحولها إلى أصوات لين فقد حدث على الأخص فى حرف اللام l المتطرفة (vocalisation de l final)(٢) .

هذا ، وقد أحدث سقوط الأصوات اللينة والساكنة الواقعة فى أواخر الألفاظ انقلاباً كبيراً فى عالم اللغات . فقد كان من آثاره انقراض « طريقة الإعراب » فى كثير من اللغات التى كانت تسير عليها كالعربية واللاتينية وما إليهما(٣) .

٢ — ووقوع الصوت فى وسط الكلمة يعرضه لكثير من صنوف التطور والانحراف .

فمن ذلك ما حدث فى اللغة العربية بصدد الهمزة الساكنة الواقعة فى وسط الثلاثى . فقد تحولت إلى ألف لينة فى عامية المصريين وغيرهم (فيقال : راس ، فاس ، فال ، ضانى ..، بدلا من : رأس ، فأس ، فأل ، ضأن .. الخ) .

ومن هذا القبيل كذلك ما حدث بصدد الياء والواو الساكنتين فى وسط الكلمة فى مثل عين ويوم . فقد تحولتا فى بعض المناطق المصرية وغيرها إلى صوتين من أصوات اللين ، فأولهما تحول إلى صوت يشبه صوت é فى اللغة الفرنسية (عين ، خيل ، بين ، زينب ... الخ) ؛ وثانيهما تحول إلى صوت يشبه صوت ô الفرنسى (يوم ، نوم ، فوز ، لوم .. الخ) .

ومن ذلك تحريك الحرف الساكن إذا وقع فى وسط كلمة ثلاثية فى كثير من لهجات البلاد العربية (عامية الشرقية ، وبعض عاميات الصعيد ، ولهجات القبائل

---

(١) حدث مثل ذلك أيضاً فى الألمانية الحديثة إذ تحول فيها مثلا grob. tod إلى grop. tot . انظر Dauzat op. cit 75 .

(٢) حدث ذلك فى الفرنسية وفى البروفنسية حوالى القرن الثانى عشر الميلادى V. Dauzat op.cit. 75 .

(٣) « طريقة الإعراب » هى الطريقة التى تعتمد فى بيان نوع الكلمة ووظيفتها فى الجملة على ما يلحق آخرها من أصوات . ولا يزال لهذه الطريقة آثار كثيرة فى بعض لغات التخاطب كالألمانية وما إليها .

العربية النازحة إلى مصر ، ولهجة العراق ... الخ) ؛ فيقال مثلا : إسِم ، رسِم ، مَصِر ، جُرُن ، بَدِر ، فَحِل ، فِجِل .. الخ ، بدلا من اسْم ، رسْم ، مصْر ، جرْن ، فَحْل ، فِجْل .. الخ)[1] .

وقد سجل الباحثون ظواهر كثيرة من هذا القبيل فى اللغات الهندية الأوربية .

فمن ذلك ما حدث بصدد صوت اللين القوى tonique الواقع قبيل آخر الكلمة وخاصة إذا كان حراً voyelle libre ، أى متبوعاً بصوت ساكن واحد أو بصوتين من أحدى المجموعات الآتية : br, cr, de, tr فقد تحول هذا الصوت فى معظم حالاته فى اللغات اللاتينية والجرمانية واليونانية القديمة إلى صوت لين مركب (diphtongue) . وأشد أصوات اللين اتجاها إلى هذا التحول صوتان هما è, ô ؛ وأقل منهما ميلا إلى هذا التحول صوتا u, i ، فإنه لم يكد يبدو فيهما هذا الميل إلا فى اللغات الجرمانية (scinan تحولت فى الألمانية scheinen وينطق بها chaïnen ، وفى الانجليزية إلى shine وينطق بها chaîne)[2] .

ومن ذلك ما حدث للصوت الساكن الواقع بين صوتى لين . فموقعه هذا قد أدى به أحياناً إلى السقوط وأحياناً إلى الانحراف عن مخرجه الأصلى والتحول إلى صوت آخر . فصوت الباءb قد تحول فى لغة التخاطب اللاتينية إلى صوت v (faba تحولت إلى fava)[3] وصوت السين s قد تحول فى اللاتينية إلى راء r (arbosis تحول إلى arboris) . وصوت الدال d فى الكلمات اللاتينية قد تحول إلى ذال z فى البروفنسية[4] وسقط فى الفرنسية والاسبانية : latin : videre; provencal vezer; français : veoir, voir; espagnol : veer, ver . وصوتا اللام والنون n, l الواقعان بين صوتى لين قد سقطا فى اللغة البرتغالية فى العصور الوسطى (populus تحول إلى povo rationem, تحول إلى razoe) . والأصوات الصامتة (consonnes sourdes : p,

---

(١) هذه كذلك لهجة قديمة من لهجات بعض القبائل العربية .

(٢) ظهر هذا الميل كذلك فى بعض اللهجات العامية الايطالية V. Dauzat, op. cit. 70 .

(٣) لم يشذ عن ذلك إلا عدد يسير من الكلمات .

(٤) كان ينطق بصوت z فى البروفنسية كما ينطق بالذال العربية (th فى الانجليزية) .

t, k.. etc.) الواقعة بين صوتى لين قد تحولت فى اللاتينية الحديثة حوالى القرن السادس إلى أصوات مدوية cousonnes sonores قريبة منها (b. d. g... etc) . وإلى هذا الحد وقف تطور هذا النوع فى الاسبانية والبروفنسية . أما فى الفرنسية الحديثة فقد حدث تحول آخر إذ انقلب صوت الباء b إلى v وسقط صوت الدال والجيم d, g ، كما يظهر ذلك من الأمثلة الآتية[١] :

latin : ripa, amata, securus
esp. et prov. : ribera (riba), amada, segur (o)
français : rive, aimée, sûr,

٣ — ووقوع الصوت فى أول الكلمة يجعله كذلك عرضة للانحراف. فمن ذلك ما حدث فى بعض المفردات العربية المفتتحة بالهمزة ، إذ تحولت همزتها فى بعض اللهجات العامية إلى فاء أو واو (« أذن » تحولت فى عامية المصريين إلى « ودن » ، و « أين » تحولت إلى « فين » أو إلى « وين » فى عامية القبائل العربية النازحة إلى مصر وفى عامية العراق والحجاز ، و « أدى » تحولت فى بعض المواضع فى عامية المصريين إلى « ودى » فيقال مثلا « وداه المدرسة » بمعنى « أدى به إلى المدرسة » أى أوصله إليها)[٢] .

٤ — وقد تتبادل الأصوات مواقعها فى الكلمة ويحل بعضها محل بعض ، فيتقدم المتأخر منها ويتأخر السابق . وتسمى هذه الظاهرة « بالنقل المكانى » (Metathèse) كما حدث فى abeuvrer, berbix إذ تحولا إلى abreuver, brebis ؛ وكما حدث فى الكلمة العربية « أرانب » إذ تحولت فى عامية القاهرة وغيرها إلى « أنارب » .

* * *

---

(١) انظر فى هذا الموضوع : Dauzat, op. cit. 74,75 .

(٢) ليس هذا مقصوراً على اللغات العامية ، بل يوجد له نظير فى بعض اللهجات العربية الفصحى . ففى لغة أهل اليمن تبدل الهمزة واواً فى مثل « آتيته » ، فيقال مثلا واتيته على الأمر مواتاة ، وهى المشهورة على ألسنة الناس .

ثالثاً ـــ تناوب الأصوات وحلول بعضها محل بعض :

وفيما عدا الحالات السابقة قد لوحظ أن الأصوات المتحدة النوع تتناوب ويحل بعضها محل بعض . وقد سجل الباحثون ظواهر كثيرة فى هذا الصدد بعضها خاص بأصوات اللين وبعضها يتعلق بالأصوات الساكنة .

١ ـــ أما تناوب أصوات اللين فلم تكد تخلو منه لغة من اللغات الإنسانية .

ففى اللغة العربية حدث تناوب واسع النطاق بين أصوات اللين القصيرة (التى يرمز إليها بالفتحة والكسرة والضمة) . ويمثل هذا التناوب انقلابا من أهم الانقلابات التى اعتورت هذه اللغة . فقد كان من آثاره أن انحرفت أوزان الكلمات وانقلب أشكالها رأساً على عقب ، حتى لا نكاد نجد فى اللهجات العامية كلمة واحدة باقية على وزنها العربى القديم . فالفتحة قد استبدل بها الضمة أحياناً والكسرة فى كثير من الأحوال (فبدلا من : يَعوم ، يَسجد ، يَسمع ، عَثَر ، خَلَص ، سَكَت ، كَبير ، ألْكتاب ... إلخ ؛ يقال فى عامية المصريين : يُعُوم ، يُسجد ، يِسمع ، عِتِر أو عُتُر ، خِلِص أو خُلُص ، سِكِت أو سُكُت ، كِبير ، إلكتاب ... الخ) . والكسرة قد استبدل بها الضمة أحياناً والفتحة فى كثير من الأحوال (فبدلا من : يلطِم ، يضرِب ، يسرِق ، عِند .. إلخ ؛ يقال فى عامية المصريين : يلطُم ، يضرَب ، يسرَأ ، عَند ... إلخ) . والضمة قد استبدل بها الفتحة أحياناً والكسرة فى معظم الحالات (فبدلا من : مُحمد ، ثُعبان ، أُنثى ، عُثة ، يقتُل ، يذُم ، ظُفْر .. الخ ؛ يقال فى عامية المصريين : مَحمد ، تِعبان ، إنتاية ، عِتة ، يئتِل ، يزِم ، ضِفْر .. الخ) .

وحدث كذلك تناسخ فى أصوات اللين الطويلة نفسها ، وخاصة فى الألف اللينة إذ أميلت فى لغة بعض القبائل العربية القديمة ، وتمال الآن فى لهجات بعض القبائل العربية النازحة إلى مصر وفى بعض اللهجات فى بلاد الشرقية وغيرها .

وما حدث فى اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله فى اللغات الأوربية .

فمن ذلك تحول أصوات اللين المركبة diphtongue إلى أصوات لين بسيطة فى كثير من هذه اللغات . فاللغة الفرنسية مثلا قد تحول فى نطقها معظم أصوات اللين المركبة إلى أصوات لين بسيطة ؛ وإن كانت لا تزال ترسم حسب حالتها القديمة (ai, ei, au, eau, eu.. etc.) ؛ وعلى هذه الظاهرة يقع قسط كبير من التبعة فى صعوبة الرسم الفرنسى وعدم مطابقته للنطق(١) . وما حدث فى اللغة الفرنسية بهذا الصدد حدث مثله فى سائر اللغات الأوروبية وخاصة الأسبانية والايطالية والألمانية والانجليزية(٢) .

ومن ذلك أيضاً تحول صوت a إلى صوت i فى عدد كبير من مفردات اللغة اليونانية وفى بعض مواطن فى اللغتين السلتية والفرنسية . وقد لوحظ أن هذا التحول يتم بالتدريج ، فينحرف صوت a إلى صوت آخر قريب منه ، وهذا إلى ثالث ... وهكذا حتى يصل إلى i ؛ وقد لوحظ كذلك أنه يقطع لهذه الغاية أحد طريقين : طريق قصير وهو a, è, é, i وطريق طويل وهو a, o, ô, ou, u, i ولم يحدث مطلقاً أن قطع فى تطوره سبيلا آخر غير هذين الطريقين ، أو تخطى مرحلة من المراحل المرسومة فى كليهما ، أو غيَّر شيئاً فى ترتيبهما السابق بيانه .

٢ ــ وأما تناسخ الأصوات الساكنة فقد حدث كذلك فى جميع اللغات الانسانية .

فكثير من الأصوات الساكنة فى اللغة العربية قد تناسخت فى اللهجات العامية وحل بعضها محل بعض . فالسين قد تحولت إلى صاد فى بعض المواطن (« ساخن » تحول إلى « صاخن » فى عامية الشرقية وغيرها) ؛ والصاد إلى سين فى كثير من الألفاظ فى عامية القاهرة وغيرها (فبدلا من : يصدق ، مصير .. الخ ؛ يقال : يسدق ، مسير) ؛ والضاد إلى ظاء فى عامية العراق والمغرب العربى وخاصة ليبيا ، وفى لهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر (فبدلا من : وضوء ، يضيع ، يضرب ، يضم .. إليخ ؛ يقال : وظوء ، يظيع ، يظرب ، يظم .. الخ) ؛ والعين

---

(١) V. Dauzat op. cit. 64,65 .

(٢) V. Dauzat op. cit. 63,64 .

إلى نون فى بعض الكلمات فى لهجة العراقيين (فيقال مثلا : « ينطى » بدلا من « يعطى »)[1] ؛ واللام إلى ميم فى بعض الكلمات فى عامية القاهرة (« امبارح » بدلا من « البارحة »)[2] ؛ والميم إلى نون أحياناً فى عامية المصريين (فيقال : « فاطنة » بدلا من « فاطمة ») ... وهلم جرا .

وما حدث فى اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله فى اللغات الهندية ـــ الأوربية .

فمن ذلك تحول صوت w فى اللغة اللاتينية (وكان ينطق به كما ينطق به الآن فى الانجليزية ، وكما ينطق بالواو فى العربية) إلى صوت V . فقد أخذ الصوت الأول ، منذ مبدأ العصور الوسطى ، يدنو شيئاً فشيئاً من الصوت الأخير حتى استبدل هذا به فى كثير من الكلمات فى معظم اللغات المنشعبة عن اللاتينية[3] .

ومن هذا القبيل كذلك ما حدث فى صوت k المتبوع بصوت a فى الكلمات اللاتينية . فقد تحول فى اللغة الفرنسية فى معظم مواطنه إلى ch (canem, caballum تحول فى الفرنسية إلى chien, cheval)[4] .

ومن ذلك أيضاً ما حدث فى اللغات الجرمانية من تناوب بين المجموعات الثلاثة الآتية من الأصوات : f,th,kh. p,t,k. b, d, g. فإن كل صوت من أصوات المجموعة الأولى قد تحول إلى مايقابله فى الترتيب من أصوات المجموعة الثانية ، وأصوات المجموعة الثانية تحولت بهذا النظام إلى أصوات الثالثة ؛ وأصوات الثالثة إلى أصوات الأولى . فبالموازنة بين الكلمات الجرمانية وأصولها فى اللغات الهندية ـــ الأوربية القديمة ونظائرها فى اللاتينية والاغريقية ، يظهر أن الأصوات الآتية

---

(١) تكاد تكون هذه الظاهرة مقصورة لديهم على العين المتبوعة بطاء . وعلى هذا النحو كانت تسير قديماً لهجة هذيل . وقرأ الحسن وطلحة وابن محيصن والزعفرانى : « إنا أنطيناك الكوثر » .

(٢) هذه كذلك لهجة حمير ، وقد جاء بها الحديث : « ليس من امبر امصيام فى امسفر » (ليس من البر الصيام فى السفر) .

(٣) V. Dauzat op. cit 65,66 .

(٤) V. Delacroix, Langage et Pensée, 144 .

المدونة فى السطر الأول قد تحولت فى اللغات الجرمانية إلى الأصوات المدونة تحتها فى السطر الثانى :

b,d,g	p,	t,	k	f (ph)	th	kh
p,t,k	f(ph)	th	khgh	b	d	g

كما يدو من الأمثلة الآتية :

(Sanscrit)	(Latin)	(Anglais)
pitar	pater	father
	frater	brother
	dentis	touth
	genu	knee
	pedis	fout

وقد حدث فى بعض اللغات الجرمانية فى العصور الوسطى تطور ثان فى الأصوات الجديدة التى نجمت عن التطور الأول ، فتحولت هذه الأصوات نفسها إلى ما يقابلها فى الجدول السابق . وحدث فى اللغة الألمانية فى العصور الحديثة تطور ثالث فى الأصوات التى جاء بها التطور الثانى وفقاً للخطة نفسها المرسومة آنفاً ؛ وقد أدى ذلك إلى رجوع بعض هذه الأصوات إلى الأصل القديم الذى كانت عليه قبل التطور الأول . فالتاء مثلا t فى كلمة frater قد تحولت إلى ذال th فأصبحت bruther ، ثم تحولت هذا الذال إلى دال d فأصبحت bruder ، وهذه الدال قد تحولت فى الألمانية الحديثة إلى تاء فأصبحت bruter . وبذلك عاد هذا الصوت بعد هذه التطورات الثلاثة إلى الأصل القديم الذى كان عليه قبل التطور الأول . وهذا هو ما اصطلح علماء اللغة من الألمان على تسميته « بالدورة الثلاثية »[١] .

(١) V. Dauzat 66-69 .

العوامل اللغوية المؤثر فى تطور الدلالة :

وأما العوامل اللغوية التى تؤثر فى تطور الدلالة ، فيرجع أهمها كذلك إلى ثلاثة أمور :

أحدها : عوامل تتعلق بمبلغ ارتباط الكلمة بفصيلتها ومبلغ وضوح دلالتها فى الذهن . وذلك أنه كلما كان مدلول الكلمة واضحاً فى الأذهان قلّ تعرضه للتغير . وكلما كان مبهما غامضاً مرناً كثر تقلبه وضعفت مقاومته لعوامل الانحراف . ويساعد على وضوح مدلول الكلمة عوامل كثيرة من أهمها أن تكون مرتبطة بفصيلة من الكلمات معروفة الأصل . ويعمل على أبهامها عوامل كثيرة من أهمها ألا تكون لها أسرة معروفة الأصل متداولة الاستعمال .

هذا ، وإن انعزال الكلمة ، أى عدم اتصالها بأسرة معروفة ، لا يقف أثره عند تعريض مدلولها للانحراف عن وضعه الأصلى على الوجه الذى سبق شرحه ، بل كثيراً ما يعرضها هى نفسها للفناء .

فما أشبه الكلمات بأفراد الحيوانات الاجتماعية : يظل الواحد منها قوياً منيع الجانب ما اندمج فى أفراد قطيعه وقوى تضامنه معه ؛ ويتعرض للأذى والهلاك كلما انعزل أو وهنت العلاقات التى تربطه به . ولهذا السبب كادت تنقرض من لغة التخاطب الفرنسية كلمات Besicles, binocle, missive, visage, miroir وحل محل كل منها كلمة معروفة الاشتقاق قوية الصلة بأفراد أسرتها : lunettes, lorgnon, lettre, figure, glace .

وثانيها : عوامل تتعلق بأصوات الكلمة . فثبات أصوات الكلمة يساعد على ثبات معناها ، وتغيرها يذلل أحياناً السبيل إلى تغيره . وذلك أن صلتها بالأسرة التى تنتمى إليها وبالأصل المشتقة منه تظل وثيقة وواضحة فى الذهن ما دامت محتفظة بصورتها الصوتية ؛ وقوة هذه الصلة تساعد على ثبات مدلولها . على حين أن تغير صورتها الصوتية يضعف صلتها فى الأذهان بأصلها وأسرتها ويبعدها عنهما ؛ وهذا يجعل معناها عرضة للتغير والانحراف . فالوصف اللاتينى vivus ظل محتفظاً بمعناه

الأصلى (الحى ، ضد الميت) طوال المدة التى احتفظ فيها بأصوات بنيته ؛ وذلك لقوة ارتباطه عن طريق البنية بأفراد أسرته .vivere, vita.. etc . ولكنه لم يلبث بعد أن تغيرت صورته الصوتية فى الفرنسية إلى vif أن أخذ ينحرف شيئاً فشيئاً عن مدلوله القديم ، حتى بعد عنه ، وأصبح يدل الآن على الوصف بالقوة والحدة والنشاط . وذلك لأن تغير صورته الصوتية قد باعد ما بينه وبين أفراد أسرته (..vivre, vivant etc.) ، فعرض مدلوله لهذا الانحراف . ومن هذا القبيل كذلك كلمة sage ؛ فإن انحراف صورتها الصوتية إلى هذا الوضع قد عزلها عن أفراد فصيلتها (..savoir, savant etc.) وعرض مدلولها للتغير ، فانحرف من معنى العالم (ضد الجاهل) إلى معنى الهادىء المطيع .

وثالثها : عوامل تتعلق بالقواعد . فقد تذلل قواعد اللغة نفسها السبيل إلى تغير مدلول الكلمة ، وتساعد على توجيهه وجهة خاصة . فتذكير كلمة « ولد » مثلا فى العربية (ولد صغير) ، قد جعل معناها يرتبط فى الذهن بالمذكر ، ولذلك أخذ مدلولها يدنو شيئاً فشيئاً من هذا النوع ، حتى أصبحت لا تطلق فى كثير من اللهجات العامية إلا على الولد من الذكور . وكذلك كلمة homo فى اللاتينية . فقد كانت تطلق فى الأصل على الانسان رجلا كان أم امرأة ؛ ولكن تذكيرها ربط مدلولها فى الذهن بنوع الذكور ، فأخذ يدنو شيئاً فشيئاً من هذا النوع حتى أصبحت فى كثير من اللغات المنشعبة عن اللاتينية لا تطلق إلا على الرجال .

(٧)
خلاصة هذا الفصل

مما تقدم فى هذا الفصل تظهر لنا ثلاث حقائق هامة :

إحداها : أن اللغة ــ شأنها فى ذلك شأن الظواهر الاجتماعية الأخرى ــ عرضة للتطور المطرد فى مختلف عناصرها : أصواتها وقواعدها ومتنها ودلالاتها ؛ وأن تطورها هذا لا يجرى تبعاً للأهواء والمصادفات ، أو وفقاً لارادة الأفراد ، وإنما يخضع فى سيره لقوانين جبرية ثابتة ، مطردة النتائج ، واضحة المعالم ، محققة الآثار ، لا يد لأحد على وقف عملها أو تغيير ما تؤدى إليه .

فليس فى قدرة الأفراد أن يقفوا تطور لغة ما ، أو يجعلوها تجمد على وضع خاص ، أو يسيروا بها فى سبيل غير السبيل التى رسمتها لها سنن التطور الطبيعى الموضحة فى الفقرات السابقة . فمهما أجادوا فى وضع معجماتها ، وتحديد ألفاظها ومدلولاتها ، وضبط أصواتها وقواعدها .. ، ومهما أجهدوا أنفسهم فى إتقان تعليمها للأطفال قراءة وكتابة ونطقاً ، وفى وضع طرق ثابتة سليمة يسير عليها المعلمون فى هذا الصدد ، ومهما بذلوا من قوة فى محاربة ما يطرأ عليها من لحن وخطأ وتحريف ، فإنها لا تلبث أن تحطم هذه الأغلال ، وتفلت من هذه القيود ، وتسير فى السبيل التى تريدها على السير فيها سنن التطور والارتقاء الطبيعيين .

وإليك مثلا حالة اللغة العربية فى صدر الاسلام وما آلت إليه الآن فى لهجات المحادثة : فعلى الرغم من الجهود الجبارة التى بذلت فى سبيل صيانتها ومحاربة ما يطرأ عليها من تحريف ، ومع أن هذه الجهود كانت تعتمد على دعامة من الدين ، فإن ذلك كله لم يحل دون تطورها فى الأصوات والقواعد والأساليب ودلالة المفردات إلى الصوة التى تتفق مع قوانين التطور اللغوى ، فأصبحت على الحالة التى هى عليها

الآن فى اللهجات العامية .

حقاً إنه يمكن أحياناً التحكم فى لغة الكتابة والجمود بها زمنا طويلا على أصولها القديمة أو ما يقارب منها . ولكن لغة الكتابة التى تجمد بهذا الشكل لا تمثل تمثيلا صحيحاً حالة الحياة اللغوية فى الأمة ، وتتسع كثيراً مسافة الخلف بينها وبين لغة المحادثة . لأن هذه اللغة الأخيرة فى تطور مطرد ، ولا تستطيع أية قوة إلى تعويق تطورها سبيلا . فلا تنفك تبعد عن لغة الكتابة الجامدة ، حتى تصبح كل منهما غريبة عن الأخرى ، ويصبح تعلم لغة الكتابة وتعليمها فى الأمة أشبه شىء بتعلم لغة أجنبية وتعليمها . وهذا هو ما كان عليه الحالة بفرنسا وإيطاليا ورومانيا وإسبانيا والبرتغال أيام أن كانت لغة الكتابة فيها هى اللاتينية ، وكانت لهجاتها المحلية مقصورة على شئون المحادثة ، وما عليه الحال الآن فى مصر وبلاد العرب وشمال أفريقيا بصدد العلاقة بين لهجات المحادثة واللغة العربية الفصحى المتخذة لغة كتابة فى هذه الشعوب .

على أن ظاهرة كهذه لا تكاد تبدو إلا حيث تكون لغة المحادثة غير تامة التكون ولا كاملة النمو ؛ ولا تبقى إلا ما بقيت لغة المحادثة على هذه الحال . فإذا ما بلغت هذه اللغة أشدها ، وتم تكونها ، واكتمل نموها ، واتسع متنها ، ووضحت دلالات مفرداتها ووجوه استخدامها ، وتشعبت فيها فنون القول ، ودقت مناحى التعبير ، وقويت على تأدية حقائق الآداب والعلوم ، أخذت تطارد لغة الكتابة ، وتستلبها وظائفها وظيفة وظيفة حتى تجردها منها جميعاً ، فتصبح هى لغة الكتابة ، وتقذف بلغة الكتابة القديمة فى زاويا اللغات الميتة . وهذا هو ما انتهى إليه أمر اللاتينية مع لغات المحادثة بفرنسا وإيطاليا ورومانيا وإسبانيا والبرتغال .

فما أشبه لغة الكتابة الجامدة فى حالات كهذه بجبل ثلج ثابت على سطح البحر ، ولغات المحادثة المتطورة بالتيارات المائية التى تموج تحته . فمهما طال بقاء هذا الثلج ، فإن مصيره إلى التحطم والذوبان ؛ وحينئذ تطفو تلك التيارات إلى سطح البحر ، وتعيد إليه ما كان مستوراً تحت هذا الجبل الجامد من مظاهر النشاط والحياة .

وثانيتها : أن أهم العوامل التى تؤثر فى تطور اللغة ترجع إلى الوشائج التى تربطها بحياة المجتمع وشئون الحياة الجمعية ، أى ترجع إلى ظواهر اجتماعية خالصة . فجميع عوامل التطور التى ذكرناها فى الفقرات الثلاث الأولى(١) ، وقسم هام من العوامل التى ذكرناها فى الفقرة الرابعة(٢) مردها إلى الحياة الجمعية ، وما تمتاز به هذه الحياة من خصائص ، وتسير عليه من نظم ، وتسلكه من مناهج .

وثالثتها : أن بعض العوامل التى تؤثر فى هذا التطور ترجع إلى أمور غير إجتماعية ، كالعوامل التى ذكرناها فى القسم الأخير من الفقرة الرابعة(٣) والتى ذكرناها فى الفقرتين الخامسة والسادسة(٤) .

حقاً إن الأهمية النسبية لهذه الطائفة من العوامل أقل كثيراً من أهمية العوامل الاجتماعية ؛ ولكنها فى ذاتها عميقة الأثر فى كثير من مظاهر التطور اللغوى .

وحقاً إنه من الممكن أن يرد بعضها إلى ظواهر الاجتماع ؛ ولكن قسطا غير يسير منها لا يمت بصلة ما إلى هذه الظواهر أو يمت إليها بصلات ضعيفة أو ممعنة فى البعد .

---

(١) انظر ص ١٣ — ٤٦ .

(٢) انظر ص ٤٧ — ٤٨ .

(٣) انظر ص ٤٩ — ٥٤ .

(٤) انظر ص ٥٥ — ٧٦ .

الفصل الثاني

صراع اللغات [1]

يحدث بين اللغات ما يحدث بين أفراد الكائنات الحية وجماعاتها من احتكاك وصراع وتنازع على البقاء وسعى وراء الغلب والسيطرة . وتختلف نتائج هذا الصراع باختلاف الأحوال . فتارة ترجح كفة أحد المتنازعين فيسارع إلى القضاء على الآخر مستخدماً فى ذلك وسائل القسوة والعنف ، ويتعقب فلوله فلا يكاد يبقى على أثر من آثاره . وتارة ترجح كفة أحدهما كذلك ، ولكنه يمهل الآخر ، وينتقص بالتدريج من قوته ونفوذه ، ويعمل على خضد شوكته شيئاً فشيئاً حتى يتم له النصر . وأحياناً تتكافأ قواهما أو تكاد فتظل الحرب بينهما سجالا ويظل كل منهما فى أثنائها محتفظاً بشخصيته ومميزاته .

وينشأ هذا الصراع عن عوامل كثيرة أهمها عاملان : أحدهما أن ينزح إلى البلد عناصر أجنبية تنطق بلغة غير لغة أهله ؛ والآخر أن يتجاور شعبان مختلفا اللغة فيتبادلا المنافع ويتاح لأفرادهما فرص للاحتكاك المادى والثقافى .

---

(١) سنقتصر فى هذا الفصل على الصراع بين اللغات المستقلة . أما الصراع بين لهجات اللغة الواحدة فسنعرض له فى أثناء كلامنا على تفرع اللغات فى الفصل الثالث من هذا الكتاب . وذلك لأن هذا النوع الأخير من الصراع يلازم التفرع ويسايره ويكمل عمله ، وذلك على عكس الصراع بين اللغات المنفصلة ، فإنه مستقل عن التفرع . هذا وسيظهر لنا أن صراع اللغات بعضها مع بعض يؤدى إلى انقلابات وتطورات لغوية عميقة . فموضوع هذا الفصل يعد فى حقيقة الأمر متمماً لموضوعات الفصل السابق ويتصل اتصالا وثيقاً بالفقرة الثانية منه (انظر ص ٢٥ — ٢٩) .

وسنقف على دراسة كل عامل من هذين العاملية ونتائجه فقرة على حدتها ، ونضيف إليهما فقرة ثالثة نبين فيها أثر العوامل الأخرى فى صراع اللغات ؛ ثم نختم الفصل بفقرة رابعة نستخلص فيها ما تهدينا إليه هذه الدراسة بصدد قوانين الصراع اللغوى وأثر الظواهر الاجتماعية فى سيره .

(١)
العامل الأول من عوامل الصراع اللغوى
نزوح عناصر أجنبية إلى البلد

قد يحدث على أثر فتح أو استعمار أو حرب أو هجرة .. أن ينزح إلى البلد عنصر أجنبى ينطق بلغة غير لغة أهله ؛ فتشتبك اللغتان فى صراع ينتهى إلى إحدى نتيجتين : فأحياناً تنتصر لغة منهما على الأخرى ، فتصبح لغة جميع السكان قديمهم وحديثهم ، أصليلهم ودخليهم ؛ وأحياناً لا تقوى واحدة منهما على الأخرى فتعيشان معاً جنباً لجنب .

(أ) الحالات التى يحدث فيها تغلب إحدى اللغتين :

وتحدث النتيجة الأولى ، وهى أن تتغلب إحدى اللغتين على الأخرى فتصبح لغة جميع السكان أصيلهم ودخيلهم ، فى حالتين :

الحالة الأولى : أن يكون كلا الشعبين همجياً قليل الحضارة منحط الثقافة ، ويزيد عدد أفراد أحدهما عن عدد أفراد الآخر زيادة كبيرة . ففى هذه الحالة تتغلب لغة أكثرهما عدداً سواء أكانت لغة الغالب أم المغلوب ، لغة الأصيل أم لغة الدخيل . وذلك أنه عند انعدام النوع يتحكم الكم فى مصير الأمور . ولكن هذه النتيجة لا تحدث إلا إذا كانت اللغتان المتصارعتان من شعبة لغوية واحدة أو من

شعبتين متقاربتين(١) .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ . فمن ذلك أن الانجليز السكسونيين ، حينما نزحوا من أواسط أوروبا إلى انجلترا ، لم تلبث لغتهم أن تغلبت على اللغات السلتية التى كان يتكلم بها السكان الأصليون . وذلك لأن عدد من بقى من السلتيين بهذه الأقاليم لم يكن شيئاً مذكوراً بجانب عدد المغيرين ؛ وكلا الشعبين كان همجياً منحطاً فى مستوى حضارته ومبلغ ثقافته ؛ وكلتا اللغتين تنتمى إلى فصيلة اللغات الهندية ــ الأوروبية . والنورمانديون Normands ، حينما أغاروا على إنجلترا فى منتصف القرن التاسع الميلادى واحتلوا معظم أقاليمها ، لم تلبث لغة الشعب المقهور أن تغلبت على لغتهم ، فأصبح جميع السكان ، أصيلهم ودخليهم ، إنجليزيهم ونورمانديهم ، يتكلمون الانجليزية السكسونية . وذلك لأن الانجليز المغلوبين كانوا أكثر عدداً من النورمانديين الغالبين ؛ ولم يكن لأحد الشعبين إذ ذاك حضارة ولا ثقافة راقية ؛ وكلتا اللغتين من الفصيلة الهندية ــ الأوروبية .

وقد يحدث أحياناً فى هذه الحالة أن تتغلب لغة على أخرى من غير فصيلتها . ولكن هذه الظاهرة نادرة الحدوث ، ولا يتم التغلب فيها إلا بصعوبة وبعد أمد طويل . واللغة التى تنشأ من هذا التغلب ينالها كثير من التحريف فى ألسنة المحدثين من الناطقين بها ، لشدة الاختلاف بينها وبين لغتهم الأصلية ، فتبعد بعداً كبيراً عن صورتها الأولى . فالبلغاريون ، وهم من أصل فينوانى Finois ، حينما نزحوا إلى البلقان وامتزجوا بشعوب الصقالبة (السلافيون Slaves) ، أخذت لغتهم تنهزم شيئاً فشيئاً أمام لغة هذه الشعوب حتى انقرضت وحل محلها لسان صقلبى . وذلك لأن عدد البلغاريين لم يكن شيئاً مذكوراً بجانب عدد الصقالبة الممتزجين بهم ؛ وكلتا الفئتين كانت إذ ذاك همجية منحطة فى مستوى حضارتها ومبلغ ثقافتها . وقد حدث هذا التغلب مع اختلاف اللغتين فى الفصيلة . فلغة البلغاريين الأصلية كانت من الفصيلة الفينية ، على حين أن اللغات الصقلبية من الفصيلة الهندية ــ الأوروبية . ولكن هذا

---

(١) انظر فى فصائل اللغات الفصل الثانى من الباب الثانى من كتابنا « علم اللغة » ص ١١٠ : ١٥٥ (الطبعة السادسة) .

التغلب لم يتم إلا بصعوبة وبعد أمد طويل وصراع عنيف خرجت منه اللغة الغالبة مشوهة محرفة عن مواضعها فى ألسنة المحدثين من الناطقين بها ، فبعدت بعداً كبيراً عن صورتها القديمة . فالبلغارية الحديثة هى أكثر اللهجات الصقلبية تحريفاً وبعداً عن أصولها الأولى .

الحالة الثانية : أن يكون الشعب الغالب أرقى من الشعب المغلوب فى حضارته وثقافته وآداب لغته ، وأشد منه بأساً وأوسع نفوذاً . ففى هذه الحالة يكتب النصر للغته فتصبح لغة جميع السكان ، وإن قل عدد أفراده عن أفراد الشعب المغلوب ، على شريطة أن تدوم غلبته وقوته مدة كافية ، وأن تقيم بصفة دائمة جالية يعتد بها من أفراده فى بلاد الشعب المغلوب ، وأن تمتزج بأفراد هذا الشعب ، وأن تكون اللغتان من شعبة واحدة أو من شعبتين متقاربتين .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ . فقد نجم عن فتوح الرومان فى وسط أوروبا وشرقيها أن تغلبت لغتهم اللاتينية على اللغات الأصلية لايطاليا وإسبانيا وبلاد الجول LaGaule (فرنسا وما إليها) والألب الوسطى Alpes Centrales والاليريا Illyrie ، مع أن الرومان المغيرين كانوا فى هذه البلاد أقلية بالنسبة لسكانها الأصليين . وقد نجم عن فتوح العرب فى آسيا وأفريقيا أن تغلبت لغتهم على كثير من اللغات السامية الأخرى وعلى اللغات القبطية والبربرية(١) والكوشيتية(٢) ، فأصبحت اللغة العربية لغة الحديث والكتابة فى معظم مناطق شبه الجزيرة العربية ، وفى مصر والسودان وشمال أفريقيا وفى جزء كبير من قسمها الشرقى المتاخم لبلاد الحبشة ، مع أن الجالية العربية فى هذه البلاد كان عددها أقل كثيراً من عدد السكان الأصليين .

* * *

وفى كلتا الحالتين السابقتين لا يتم النصر غالباً لاحدى اللغتين إلا بعد أمد طويل يصل أحياناً إلى أربعة قرون ، وقد يمتد إلى أكثر من ذلك . فالرومان قد

---

(١) هى لغات السكان الأصليين لشمال أفريقيا (انظر ص ١٨٥ من الطبعة السادسة لكتابنا « علم اللغة ») .

(٢) هى لغات طائفة من السكان الأصليين للقسم الشرقى من أفريقيا المحصور بين درجة العرض الرابعة جنوب خط الاستواء وحدود مصر (انظر ص ١٨٥ ، ١٨٦ من الطبعة السادسة لكتابنا « علم اللغة ») .

أخضعوا بلاد الجول LaGaule (فرنسا وما إليها) فى القرن الأول الميلادى ؛ ولكن لم يتم النصر للغتهم اللاتينية على اللغة السلتية التى كان يتكلم بها أهل هذه البلاد إلا حوالى القرن الرابع الميلادى . ومع ما كان للعرب من قوة الشوكة ، ورقى اللغة ، واتساع الحضارة ، وحماية الدين ، وسطوة الغالب ، لم يتم النصر للغتهم على القبطية والبربرية إلا بعد أمد طويل . على أن اللغة القبطية لا تزال مستخدمة فى كثير من الطقوس الدينية الأرثوذكسية(١) ؛ واللغات البربرية لا تزال إلى الوقت الحاضر لغة محادثة لدى بعض العشائر المغربية .

* * *

وغنى عن البيان أن انتصاراً لا يتم إلا بعد أمد طويل وجهاد عنيف ، لا يخرج المنتصر من معاركه على الحالة نفسها التى كان عليها من قبل . فاللغة التى يتم لها الغلب لا تخرج سليمة من هذا الصراع . بل إن طول احتكاكها باللغة الأخرى يجعلها تتأثر بها فى كثير من مظاهرها وبخاصة فى مفرداتها .

ويختلف مبلغ هذا التأثر باختلاف الأحوال : فتكثر مظاهره كلما طال أمد احتكاك اللغتين وكان النزاع بينهما عنيفاً والمقاومة قوية من جانب اللغة المقهورة ؛ وتقل مظاهره كلما قصرت مدة الصراع ، أو خفت وطأة النزاع أو كانت المقاومة

---

(١) لقد ظل انتشار اللغة العربية بطيئاً فى مصر العربية طوال القرن الهجرى الأول . وقبيل نهاية هذا القرن أى فى سنة ٨٧ هـ (٧٠٥ م) وفى ولاية عبد الله بن عبد الملك على مصر من قبل أخيه الوليد بن عبد الملك أمر بالدواوين « فنسخت بالعربية وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية » (انظر الكندى ص ٥٨ ، ٥٩) . وجاء فى دائرة المعارف الاسلامية بمادتى « ديوان » و « قبط » : « أن الدواوين فى مصر كانت تكتب باليونانية لا القبطية » ؛ وهذا هو الأصح .

وظل التحول من الكتابة باليونانية فى الدواوين والتحدث بالقبطية إلى الكتابة والتحدث بالعربية يتم بالتدريج خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، بدليل ما يذكره المقريزى من أن المأمون كان ينتقل فى ريف مصر ومعه مترجم (دخل المأمون مصر سنة ٢١٧ هـ . انظر « النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة » لأبى المحاسن ج ٢ ص ٢١٦) . حتى إذا كان القرن الرابع كانت غالبية الشعب المصرى يتكلمون العربية ولا يفهمون القبطية ؛ بدليل أن رجال الكنيسة أنفسهم اضطروا فى هذا القرن أن يلقوا مواعظهم فى الكنائس باللغة العربية .

وليس معنى ذلك أن القبطية كانت قد انقرضت كل الانقراض فى هذا العصر . فالحقيقة أنها ظلت باقية فى ألسنة بعض المناطق مدة طويلة بعد ذلك ؛ بدليل ما يذكره المقدسى فى « أحسن التقاسيم » (ألفه حوالى سنة ٣٢٥ هـ) من أن بعض مسيحيى مصر كانوا يتحدثون بالقبطية .

ضعيفة من جانب اللغة المغلوبة . فلطول الأمد الذى استغرقه الكفاح بين لغة الانجليز السكسون بانجلترا ولغة الفاتحين من الفرنسيين النورمانديين (الذين أغاروا على بلاد الانجليز فى القرن التاسع الميلادى واحتلوا معظم مناطق انجلترا كما سبقت الاشارة إلى ذلك) ، ولشدة المقاومة التى أبدتها اللغة النورماندية المقهورة ، خرجت اللغة المنتصرة (الانجليزية) من هذا الصراع وقد فقدت أكثر من نصف مفرداتها الأصلية واستبدلت به كلمات من اللغة النورماندية المغلوبة ، واقتبست منها فضلا عن هذا مفردات أخرى جديدة . على حين أن لغة بلاد الجول La Gaule التى انتصرت عليها اللغة اللاتينية لم تترك فى اللغة الغالبة أكثر من عشرين كلمة[١] ؛ واللغات القبطية والبربرية المغلوبة لم تكد تترك أى أثر فى اللغة العربية الغالبة . وذلك لأن الصراع فى هذين المثالين ، على طول أمده ، لم يكن عنيفاً ، ولم تلق فى أثنائه اللغتان الغالبتان (اللاتينية فى المثال الأول والعربية فى المثال الثانى) مقاومة شديدة من جانب اللغات المقهورة (لغة الجول السلتية فى المثال الأول والقبطية والبربرية فى المثال الثانى) .

وتختلف كذلك النواحى التى يبدو فيها تأثر اللغة الغالبة باللغة المغلوبة تبعاً لاختلاف الأحوال التى تكون عليها كلتا اللغتين فى أثناء اشتباكهما . ويبدو هذا التأثر بأوضح صورة فى النواحى التى تكون فيها اللغة المغلوبة متفوقة على اللغة الغالبة . ولذلك تألف معظم المفردات التى أخذتها الانجليزية (الغالبة) عن الفرنسية النورماندية (المغلوبة) من كلمات دالة على معان كلية وألفاظ تتصل بشئون المائدة والطهى والطعام . وذلك لأن النورماندية كانت غنية فى هاتين الطائفتين من المفردات على حين أن الانجليزية كانت فقيرة فيهما كل الفقر ، فعمدت إلى خصيمها المقهور واستلبته ما كان يعوزها قبل أن تجهز عليه . وإلى اقتباسها منه الألفاظ المتصلة بشئون المائدة والطهى وألوان الطعام يرجع السبب فى أسلوبها الغريب فى تسمية الحيوانات المأكولة اللحم . فكثير من هذه الحيوانات يطلق على كل منها فى الانجليزية اسمان : اسم جرمانى الأصل يطلق على الحيوان مادام حيا (sheep, calf, ox, pig) واسم آخر فرنسى الأصل يطلق عليه بعد ذبحه وإعداده للمائدة (muttcn, veal, beef, pork) .

---

(١) على أن بعض هذه الكلمات كان قد انتقل إلى اللاتينية قبل غزو الرومان لبلاد الجول .

والألفاظ الأصيلة للغة الغالبة ينالها كثير من التحريف فى ألسنة المحدثين من الناطقين بها (المغلوبين لغوياً) فتبعد لذلك فى أصواتها ودلالاتها وأساليب نطقها عن صورتها الأولى . ويبلغ بعدها هذا أقصى درجاته إذا كانت اللغة المقهورة من فصيلة أخرى غير فصيلة اللغة الغالبة كما سبقت الاشارة إلى ذلك[١] .

والألفاظ الدخيلة التى تقتبسها اللغة الغالبة من اللغة المغلوبة ينالها كذلك كثير من التحريف فى أصواتها ودلالاتها وطريقة نطقها ، فتبعد فى جميع هذه النواحى عن صورتها القديمة . وليست هذه الظاهرة مقصورة على الاقتباس الناشىء عن الصراع بين لغتين كتب لاحداهما النصر ، بل هى ظاهرة عامة تتحقق فى جميع الحالات التى يحدث فيها انتقال مفرد من لغة إلى أخرى ، كما سبقت الاشارة إلى ذلك[٢] .

* * *

وتقطع اللغة المغلوبة فى سبيل انقراضها مراحل كثيرة تمتاز كل مرحلة منها بمظهر خاص من مظاهر الانحلال وضعف المقاومة . ففي المرحلة الأولى تقذفها اللغة الغالبة بطائفة كبيرة من مفرداتها ، فتوهن بذلك متنها الأصلى ، وتجرده من كثير من مقوماته . ولكن اللغة المغلوبة تظل طوال هذه المرحلة محتفظة بقواعدها ومخارج حروفها وأساليبها فى نطق الكلمات : فيؤلف أهلها عباراتهم ويصرفون مفرداتهم وفقاً لقواعدهم المتعلقة بترتيب أجزاء الجملة وتصريف المفردات (السنتكس والمورفولوجيا) ، وينطقون بألفاظهم الأصيلة وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة طبقاً لأسلوبهم الصوتى ومخارج حروفهم ، حتى أنهم ليستبدلون فى الكلمات الدخيلة بالحروف التى لا يوجد لها نظير لديهم حروفاً قريبة منها من حروف لغتهم . وفى المرحلة التالية تتسرب إلى اللغة المغلوبة أصوات اللغة الغالبة ومخارج حروفها وأساليبها فى نطق الكلمات . فينطق أهل اللغة المغلوبة بألفاظهم الأصلية وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة من المخارج نفسها وبالطريقة نفسها التى يسير عليها النطق فى اللغة

---

(١) انظر ما ورد بصفحتى ٨٣ ، ٨٤ بصدد البلغارية الحديثة .

(٢) انظر ص ٢٩ .

الغالبة . فيزداد بذلك انحلال اللغة المغلوبة ويؤذن نجمها بالأفول . ولكنها تظل طوال هذه المرحلة مستبسلة فى الدفاع عن قواعدها المتعلقة بترتيب أجزاء الجملة وتصريف المفردات (قواعد السنتكس والمورفولوجيا) وفى مقاومة قواعد اللغة الغالبة . فيركب أهلها جُملهم ويصرفون كلماتهم وفق أساليبهم الأولى . وفى المرحلة الأخيرة تضعف هذه المقاومة شيئاً فشيئاً فتأخذ قواعد اللغة الغالبة فى الاستيلاء على الألسنة حتى يتم لها الظفر ، فيتم بذلك الاجهاز على اللغة المغلوبة . فالقواعد فى اللغة المغلوبة أشبه شيء بالقلعة التى تحتمى بها فلول الجيش المنهزم وتقاتل عنها حتى آخر رمق ، والتى يتم بسقوطها استيلاء العدو على البلاد .

(ب) الحالات التى لا تقوى فيها إحدى اللغتين على التغلب :

وأما النتيجة الأخرى وهى عدم تغلب إحدى اللغتين على الأخرى وبقاؤهما معاً جنباً لجنب فتحدث فيما عدا الحالتين المشار إليهما فى الفقرة السابقة .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى تاريخ الأمم الغابرة وفى العصر الحاضر . فاللغة اللاتينية لم تقو على اللغة الاغريقية ، مع أن الأولى كانت لغة الشعب الغالب ؛ وذلك لأن الاغريق ، مع خضوعهم للرومان ، كانوا أعرق منهم حضارة وأوسع ثقافة وأرقى لغة ؛ وقد سبق أن انهزام لغة الشعب المغلوب أمام لغة الشعب الغالب لايحدث إلا إذا كان الشعب الثانى أرقى من الشعب الأول فى جميع هذه الأمور(١) . ولهذه الأسباب نفسها لم تقو لغات الشعوب الجرمانية التي قوضت الامبراطورية الرومانية الغربية فى فاتحة العصور الوسطى على التغلب على اللغة اللاتينية فى البلاد التى قهرتها بمناطق الجول La Gaule (فرنسا وما إليها) . واللغة اللاتينية لم تقو على التغلب على لغات أهل بريطانيا العظمى ، على الرغم من فتح الرومان لبلادهم واحتلالهم إياها نحو مائة وخمسين سنة ، وعلى الرغم من أن الشعب الغالب كان أرقى كثيراً من الشعب المغلوب فى حضارته وثقافته . وذلك لأن الجالية الرومانية فى الجزر البريطانية لم تكن شيئاً مذكوراً ولم تمتزج امتزاجاً كافياً بأفراد الشعب المغلوب . وقد تقدم أن الغلب اللغوى لا يتم فى مثل هذه الحالات إلا إذا أقامت فى البلاد المقهورة جالية يعتد بها

---

(١) انظر ص ٨٤ .

من أفراد الشعب الغالب وتم الامتزاج بينها بين أفراد الشعب الآخر[١] . واللغة العربية لم تقو على الانتصار على اللغة الفارسية ، على الرغم من فتح العرب لبلاد فارس وبقائها تحت سلطانهم أمداً طويلا ، وذلك لأن الشعب العربى لم يكن إذ ذاك أرقى حضارة من الشعب الفارسى ، ولقلة عدد الجالية العربية بفارس وضعف امتزاجها بالسكان ، ولانتهاء اللغتين إلى فصيلتين مختلفتين (فالعربية من الفصيلة السامية والفارسية من الفصيلة الهندية ــ الأوروبية)[٢] . واللغة العربية لم تقو على الانتصار على اللغات الاسبانية على الرغم من فتح العرب للأندلس وبقائها تحت سلطانهم نحو سبعة قرون . وذلك لانتماء العربية إلى فصيلة غير فصيلة اللغات الاسبانية ، ولعدم امتزاج الشعوب القوطية بالشعب العربى . واللغة التركية لم تقو على التغلب على لغة أية أمة من الأمم التى كانت خاضعة للامبراطورية العثمانية بأوروبا وآسيا وأفريقيا ، على الرغم من بقاء هذه الأمم مدة طويلة تحت سلطان تركيا . وذلك لاختلاف فصائل اللغات (فالتركية من الفصيلة الطورانية على حين أن لغات معظم الأمم التى كانت خاضعة لتركيا من الفصيلة السامية ــ الحامية ، أو الهندية ــ الأوربية) ، ولأن الترك كانوا أقل حضارة وثقافة من معظم الشعوب التى كانت تابعة لهم ، ولقلة عدد جاليتهم فى بلاد هذه الشعوب ، ولضعف امتزاجها بالسكان .

والفرنسية ، لم تتغلب على عربية الجزائر تغلباً كاملا على الرغم من بقاء الجزائر تحت نير الاستعمار الفرنسى البغيض نحو مائة وثلاثين سنة وعلى الرغم مما بذلته فرنسا من جهود جبارة ليتم للغتها التغلب ، وذلك لاختلاف اللغتين فى الفصيلة .

* * *

ولكن عدم تغلب إحدى اللغتين لا يحول دون تأثر كل منهما بالأخرى . فقد تأثرت اللاتينية بالاغريقية فى أساليبها وآدابها واقتبست منها طائفة كبيرة من مفرداتها . وقد تركت اللغة العربية آثاراً قوية فى الاسبانية والبرتغالية ، وبخاصة فى

---

(١) انظر ص ٨٤ .

(٢) تقدم أن انتماء اللغتين إلى فصيلتين مختلفتين يحول غالباً دون انتصار إحداهما على الأخرى (انظر ص ٨٤ ، السطر العاشر) .

المناطق التى كانت تسمى بالأندلس أو أندلوسيا Andalousie حيث دام سلطان العرب عدة قرون[1] . والصراع بين العربية والفارسية ، وإن لم ينته إلى تغلب إحداهما ، قد ترك فى كل منهما آثاراً واضحة من الأخرى ، وبخاصة فى ناحية المفردات . والصراع بين التركية ولغات الأمم التى كانت خاضعة للامبراطورية العثمانية ، وإن لم ينته إلى تغلب لغوى ، قد ترك فى التركية آثاراً قوية من هذه اللغات وبخاصة من اللغة العربية ، وترك كذلك فى كثير من هذه اللغات آثاراً ظاهرة من التركية[2] . والصراع بين الفرنسية وعربية الجزائر لم يترك فى هذه اللهجة الأخيرة آثاراً قوية من اللغة الفرنسية فحسب ، بل كاد ينتهى إلى انقراض اللهجة العربية من ألسنة كثير من الجزائريين .

(جـ) نظرة عامة فى العامل الأول :

وقصارى القول : متى اجتمع لغتان فى بلد واحد لا مناص من تأثر كل منهما بالأخرى ، سواء أتغلبت إحداهما أم كتب لكلتيهما البقاء . غير أن هذا التأثر يختلف فى مبلغه ومنهجه ونواحى ظهوره ونتائجه فى الحالة الأولى عنه فى الحالة الثانية .

فإذا كان الغلب كتب لاحداهما نراها تسيغ كل ما تأخذه من الأخرى مهما كثرت كميته ، فيستحيل إلى عناصر من نوع عناصرها ، فتزداد به قوة ونشاطاً ، بدون أن تدع له مجالا للتأثير فى بنيتها أو تغيير تكوينها الأصلى ؛ على حين أن المغلوبة لا تقوى على مقاومة ما تقذفها به الغالبة من مفردات وقواعد وأساليب ولا تكاد

---

(١) ويظهر أن الآثار التى تركتها العربية فى البرتغالية قد بلغت هى أيضاً درجة كبيرة من الضخامة ، حتى إن بعض الباحثين أفرد مؤلفات خاصة فى الكلمات البرتغالية المأخوذة من العربية . ومن هؤلاء الأستاذ راجى باسيل من أهل « ريو دى جانيرو » بالبرازيل . فقد طبع أربع كراسات عنوانها « معجم الكلمات البرتغالية المأخوذة من العربية » ، وقدم هذه الكراسات إلى جريدة الأهرام ، كما ورد بعددها الصادر فى ٢٩ /٣ /٤٤ .

(٢) قد بلغ هذا التأثر مبلغاً كبيراً فى بعض هذه اللغات : فلغة العراق فى العصر الحاضر مثلا قد أخذت عن التركية كثيراً من المفردات وبعض الأصوات التى لا نظير لها فى العربية (كالصوت الذى ينطق به بين الشين والجيم المعطشة فى مثل عربنجى) وطائفة من القواعد الصرفية كقواعد النسب والنعت والاضافة فى مثل عربنجى (نسبة إلى العربة) ، خوش ولد (خوش كلمة فارسية الأصل معناها حسن) ، كتبخانة (دار الكتب) .

تسيغ ما تتجرعه منها ، فيتخمها ويضعف بنيها ، فتخور قواها وتفنى أنسجتها الأصلية شيئاً فشيئاً حتى تزول : كما كان شأن الانجليزية الغالبة مع النورماندية المغلوبة .

وإذا كان البقاء قد كتب لكلتيهما تعمد كل منهما إلى ما تأخذه من الأخرى فتسيغه وتفيض عليه من حيويتها وتقاوم آثاره الهدامة ، فتبقى كل منهما متميزة الشخصية موفورة القوى سليمة البناء : كما كان شأن الفارسية مع العربية .

(٢)
العامل الثاني من عوامل الصراع اللغوي

تجاور شعبين مختلفى اللغة

يتيح تجاور شعبين مختلفى اللغة فرصاً كثيرة لاحتكاك لغتيهما ، فتشتبكان فى صراع ينتهى إلى واحدة من النتيجتين نفسيهما اللتين ينتهى إليهما الصراع فى العامل الأول : فأحياناً تنتصر إحدى اللغتين على الأخرى وتحتل مناطقها ، فتصبح لغة مشتركة بين الشعبين ؛ وأحياناً لا تقوى واحدة منهما على الأخرى فتعيشان معاً جنباً لجنب .

(أ) الحالات التى يحدث فيها تغلب إحدى اللغتين :

وتحدث النتيجة الأولى وهى تغلب إحدى اللغتين على الأخرى فى حالتين :

الحالة الأولى : إذا كانت نسبة النمو فى أحد الشعبين كبيرة لدرجة يتكاثف فيها ساكنوه ، وتضيق مساحته بهم ذرعاً ، فيشتد ضغطه على حدود الشعب المجاور له ، وتكثر الهجرات المؤقتة ، وانتقالات العمال الصناعيين والزراعيين فى مواسم معينة ، وتكثر تبعاً لذلك عوامل الاحتكاك والتنازع بين اللغتين . وفى هذه الحالة تتغلب لغة الشعب الكثيف السكان على لغة المناطق المجاورة له ؛ على شريطة ألا يقل عن أهلها فى حضارته وثقافته وآداب لغته ؛ ويتأكد انتصاره إذا كان أرقى من أهلها فى هذه الأمور .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ . وأكثرها دلالة بهذا الصدد ما كان من أمر اللغة الألمانية . فقد طغت على مساحة واسعة من المناطق المجاورة لألمانيا بأوروبا الوسطى (بسويسرا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنمسا ... الخ) وقضت على لهجاتها الأولى(١) .

الحالة الأخرى : إذا تغلغل نفوذ أحد الشعبين فى الشعب المجاور له . وفى هذه الحالة تتغلب لغة الشعب القوى النفوذ ؛ على شريطة ألا يقل عن الآخر فى حضارته وثقافته وآداب لغته ، ويتأكد انتصاره إذا كان أرقى منه فى هذه الأمور .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى مختلف مراحل التاريخ .

فاللغة الفرنسية قد تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها ببلجيكا وسويسرا ؛ فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لجميع سكان « والونيا » Wallonie ببلجيكا(٢) ولنحو ٢٢ ٪ من سكان سويسرا . واللغة الايطالية قد تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها بسويسرا ، فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لنحو ٥,٣ ٪ من سكان هذه الجمهورية .

وعلى هذا الأساس نفسه تتغلب فى الدولة الواحدة لغة المقاطعة التى تكون بها العاصمة أو يكون لأهلها السلطان والنفوذ . فلغة الباسك(٣) قد أخذت تنهزم أمام اللغة الفرنسية فى المناطق التى تغلغل فيها نفوذ الفرنسيين وأمام اللغة الاسبانية فى

---

(١) ترجع بعض مظاهر هذا التغلب اللغوى إلى الغارات التى شنها الجرمان قديماً على هذه المناطق ، أى إلى أمور تتصل بالعامل الأول لا بهذا العامل . فالتمثيل هنا مقصور على الحالات التى تم فيها تغلب اللغة الألمانية فى صورة سلمية تحت تأثير الجوار وتكاثف السكان .

(٢) وهو القسم الجنوبى من بلجيكا ، وينحدر سكانه من أصول سلتية ولاتينية . على حين أن القسم الشمالى المسمى بالفلاندر Flandre ينحدر سكانه من أصل جرمانى ويتكلمون اللغة الفلامندية Flamande التى يتألف منها ومن اللهجات الهولاندية فرع اللغات النيرولاندية Néerlandaises وهو أحد فروع اللغات الجرمانية الغربية (انظر ص ١٨٢ من الطبعة السادسة لكتابنا « علم اللغة ») .

(٣) لغة الباسك Basque أو الاسكارا Euskara ، يتكلم بها الباسكيون ، وهم شعب يقطن منطقة البرانس الغربية فى العدوتين الاسبانية والفرنسية (انظر ص ١٩٣ من الطبعة السادسة لكتابنا « علم اللغة ») .

المناطق التى تغلغل فيها نفوذ الاسبانيين ، حتى كادت تنقرض فى كلتيهما . واللهجات السلتية التى كان يتكلم بها معظم السكان بإيرلندا وويلز واسكتلندا قد أخذت تنهزم أمام اللغة الانجليزية منذ أن تغلغل نفوذ إنجلترا فى هذه البلاد ، حتى زالت من لغة الأدب والكتابة ، وكادت تنقرض انقراضاً تاماً من لغة الحديث . وهكذا كان مصير اللهجة السلتية التى بقيت بمقاطعة البريتون Bretagne (فى القسم الغربى من فرنسا على سواحل الاطلانطيق) ؛ فقد أخذت تنهزم أمام اللغة الفرنسية منذ أن تغلغل نفوذ فرنسا فى هذه المقاطعة ، حتى لم يبق لها إلا آثار ضئيلة فى لغة الحديث بين الأميين من الشيوخ[١] .

ولوقوع عاصمة بلجيكا (بروكسل) فى مقاطعة « والونيا » ذات اللسان الفرنسى ، ولأن سكان هذه المقاطعة يتمتعون بقسط كبير من النفوذ والسلطان فى هذه الدولة ، أخذت اللغة الفرنسية تتغلب على الفلامندية (لغة القسم الشمالى من بلجيكا المسمى « فلاندر »)[٢] وتنتقصها من أطرافها . ولوقوع عاصمة سويسرا (برن) فى القسم الناطق بالألمانية ، ولأن سكان هذا القسم يتمتعون بأكبر قسط من النفوذ والسلطان وتتألف منهم الأغلبة الساحقة (يتكلم الألمانية فى سويسرا نحو ٧٠ ٪ من أهلها) ، أخذت اللغة الألمانية تطغى على ألسنة الناطقين بالفرنسية من السويسريين . وقد أخذت لغة قريش قبيل الاسلام تتغلب على اللغات المضرية الأخرى ، لما كانت تتمتع به من سلطان أدبى ، ويستأثر به أهلها من نفوذ دينى وسياسى . واللغة العربية العامية فى السودان الشمالى أخذت تطغى على ألسنة أهل السودان الجنوبى ، حتى لقد أصبحت لهجة المحادثة المشتركة بين قبائلهم المختلفى

---

(١) ظلت هذه المقاطعة تتمتع بشىء من استقلالها الذاتى حتى عام ١٤٩١ (فى عهد شارل الثامن) . ومن ذلك العهد اعتبرت تابعة للتاج الفرنسى . ولكن لم يتم ضمها إلى فرنسا إلا عام ١٥٣٢ فى عهد فرانسوا الأول . وقد انقرضت السلتية فى هذه المقاطعة انقراضاً تاماً من لغة الكتابة والأدب . وانقرضت كذلك من لغة الحديث بين أبناء الجيل الحاضر ، وكادت تنقرض من لغة الشيوخ أنفسهم . وقد زرت هذه المقاطعة وقضيت عدة أشهر متنقلا فى بلادها ، فلم أسمع هذه اللغة إلا من عدد قليل من الشيوخ الأميين . وحتى هؤلاء أنفسهم لا يتكلمون لغتهم هذه إلا فيما بينهم . أما مع غيرهم فيتكلمون الفرنسية ؛ ولكن ينال كلماتها وتراكيبها فى ألسنتهم كثير من التحريف كما يفعل النوبيون حينما يتحدثون باللغة العربية .

(٢) انظر التعليق الثانى ص ٩٤ .

اللهجات . ويسمون هذه اللهجة « عربية جوبا » لانتشارها على الأخص فى منطقة جوبا فى جنوب السودان .

* * *

وفى كلتا الحالتين السابقتين لا يتم النصر غالباً لاحدى اللغتين إلا بعد أمد طويل يبلغ أحياناً بضعة قرون(١) . فالصراع بين الألمانية والفرنسية بسويسرا قد بدأ منذ عهد سحيق ، ومع ذلك لم يتم بعد للألمانية النصر النهائى . والصراع بين اللغة الفرنسية واللسان السلتى الذى يتكلم به البريتونيون (سكان مقاطعة البريتون Bretayne) قد نشب منذ عدة قرون ؛ ومع ذلك لا يزال كثير من شيوخ البريتون فى العصر الحاضر يتكلمون بهذا اللسان(٢) . ولا تزال اللهجة السلتية لغة محادثة بين عامة الايرلنديين فى العصر الحاضر ، مع أن تغلب الانجليزية عليها قد بدأ فى هذه البلاد منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى . وقد أخذت لغة قريش تطغى على اللغات المضرية الأخرى منذ العصر الجاهلى ؛ ومع ذلك ظلت هذه اللغات حية فى كثير من المواطن إلى أواخر العصر العباسى . والصراع بين الفرنسية والفلامندية ببلجيكا قد بدأ منذ عصر سحيق ؛ ومع ذلك لم يتم بعد للفرنسية النصر النهائى . وكذلك الشأن فى الصراع بين الألمانية والفرنسية فى سويسرا .

* * *

وغنى عن البيان أن انتصاراً لا يتم إلا بعد أمد طويل لا يخرج المنتصر من معاركه على الحالة التى كان عليها من قبل . فاللغة التى يتم لها الغلب لا تخرج سليمة من هذا الصراع . بل إن طول احتكاكها باللغة الأخرى يجعلها تتأثر بها فى بعض مظاهرها وبخاصة فى مفرداتها ، كما سبقت الاشارة إلى ذلك فى العامل الأول(٣) . غير أن تجرد العامل الذى نحن بصدد الكلام عنه من عنف النزاع وشدة المقاومة ،

---

(١) تزيد عادة المدة التى يظهر فيها أثر هذا العامل عن المدة التى يظهر فيها أثر العامل السابق والتى أشرنا إليها فى آخر ص ٨٤ وأول ٨٥ .

(٢) انظر ص ٩٥ والتعليق الأول بهذه الصفحة .

(٣) انظر ص ٨٥ وتوابعها .

وحدوث نتائجه فى صورة سلمية متدرجة بطيئة ، كل ذلك يعمل على وقاية اللغة الغالبة ويخفف من مبلغ تأثرها باللغة المغلوبة .

والألفاظ الأصيلة للغة الغالبة ينالها بعض التحريف فى ألسنة المحدثين من الناطقين بها (المغلوبين لغوياً) ، فتختلف بعض الاختلاف فى أصواتها ودلالاتها وأساليب نطقها عن صورتها الأولى .

والكلمات الدخيلة التى تقتبسها اللغة الغالبة من اللغة المغلوبة ينالها كذلك بعض التحريف فى حروفها ومعانيها وأساليب نطقها ، فتبعد فى جميع هذه النواحى عن شكلها القديم .

وتقطع اللغة المغلوبة فى سبيل انقراضها المراحل نفسها التى أشرنا إليها فى العامل الأول : فينفذ الانحلال أولا إلى مفرداتها ، ثم إلى أصواتها ومخارج حروفها وأساليبها فى نطق الكلمات ، ويتم الاجهاز عليها بالقضاء على قواعدها(١) .

(ب) الحالات التى لا تقوى فيها إحدى اللغتين على التغلب :

وأما النتيجة الأخرى وهى عدم تغلب إحدى اللغتين المتجاورتين على الأخرى وبقاؤهما معاً جنباً لجنب فتحدث فيما عدا الحالتين المشار إليهما فى الفقرة السابقة .

ويدخل فى هذا الباب معظم العلاقات بين اللغات المتجاورة فى العصر الحاضر . فالجوار بين فرنسا وانجلترا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال لم يؤد إلى تغلب لغة شعب منها على لغة شعب آخر ، لأن احتكاك لغاتها لا ينطبق على حالة من الحالتين اللتين يحدث فيهما التغلب بالمجاورة . ولهذا السبب نفسه لم يؤد الجوار بين الفارسية والعراقية والتركية والأفغانية إلى تغلب لغة منها على أخرى . وكذلك شأن الانجليزية فى الولايات المتحدة بأمريكا الشمالية مع الاسبانية المجاورة لها فى المكسيك ؛ وشأن البرتغالية التى يتكلم بها فى البرازيل مع الاسبانية لتى يتكلم بها فى الجمهوريات المتاخمة للبرازيل بأمريكا الجنوبية (كولومبيا ، بيرو ، بوليفيا ،

---

(١) انظر ص ٨٧ وأول ٨٨ .

باراجواى ، أوروجواى ، الأرجنتين .. الخ) ؛ وكذلك شأن الحبشية مع الصومالية .. وهلم جرا .

* * *

غير أن عدم تغلب إحدى اللغتين لا يحول دون تأثر كل منهما بالأخرى . فالانجليزية الحديثة بانجلترا والفرنسية الحديثة بفرنسا تتقارضان المفردات منذ أن أتيح للشعبين المتجاورين فرص للاحتكاك وتبادل المنافع . وكذلك تفعل الفرنسية بفرنسا مع الألمانية بألمانيا(١) ومع أخواتها المجاورة لها فى الجنوب الشرقى والغربى بإيطاليا وإسبانيا والبرتغال . وتجاور التركية والفارسية ، وإن لم يؤد إلى تغلب إحداهما على الأخرى ، قد ترك فى التركية آثاراً واضحة من الفارسية وبخاصة فى المفردات ، وترك كذلك فى الفارسية بعض آثار من التركية . وتجاور الفارسية والعراقية فى العصر الحاضر ، وإن لم ينته إلى تغلب لغوى ، قد نقل إلى كل منهما كثيراً من آثار الأخرى فى المفردات والقواعد والأساليب . ومجاورة الجرمانية واللاتينية فى العصور القديمة ، وإن لم ينته إلى تغلب إحداهما ، قد نقل إلى أولاهما كثيراً من مفردات الثانية(٢) وترك فى الثانية بعض آثار من الأولى(٣) .

(جـ) نظرة عامة فى العامل الثانى :

وقصارى القول : متى أتيح للغتين متجاورتين فرص للاحتكاك ، لا مناص من تأثر كل منهما بالأخرى ، سواء أتغلبت إحداهما أم كتب لكلتيهما البقاء . غير أن هذا التأثر يختلف فى الحالة الأولى عنه فى الحالة الثانية .

---

(١) انتقل إلى الألمانية الحديثة ، تحت تأثير جوارها لفرنسا ، كثير من المفردات الفرنسية ، لدرجة أزعجت أولى الأمر وحملتهم على التدخل لصد هذا التيار وإحلال مفردات ألمانية محل المفردات الفرنسية الدخيلة ، ولكن قسطاً كبيراً من جهودهم بهذا الصدد قد ذهب أدراج الرياح .

(٢) كثير من المفردات الألمانية تبدو جرمانية خالصة ، ولكن يظهر عند البحث أنها مقتبسة فى الأصل من اللاتينية . فمن ذلك مثلا schreiben = يكتب ؛ lesen = يقرأ ؛ Katze = هر ؛ Pflanze = نبات . فإنها على الرغم من ظاهرها الجرمانى مأخوذة من الكلمات اللاتينية : Scribere, Legere , Catta, Planta .

(٣) غير أن تأثر اللاتينية بالجرمانية كان فى حكم العدم قبل غارات الجرمان على الامبراطورية الغربية فى فاتحة العصور الوسطى .

فإذا كان الفناء قد حق على إحداهما ، فإنها لا تقوى على مقاومة ما تقذفها به الثانية من مفردات وقواعد وأساليب ولا تكاد تسيغ ما تتجرعه منها ، فيتخمها ويضعف بنيتها ، فتخور قواها وتفنى أنسجتها الأصلية شيئاً فشيئاً حتى تزول ؛ على حين أن الغالبة تسيغ كل ما تأخذه من الأخرى ، مهما كبرت كميته وعظم شأنه ، فيستحيل إلى عناصر من نوع عناصرها ، فتزداد به قوة ونشاطاً ، بدون أن تدع له مجالا للتأثير فى بنيتها أو تغيير تكوينها الأصلى ؛ كما كان شأن الانجليزية والفرنسية الغالبتين مع اللهجات السلتية المغلوبة بأيرلندا وويلز ومقاطعة البريتون(١) .

وإذا كان البقاء قد كتب لكلتيهما ، تعمد كل منهما إلى ما تأخذه من الأخرى فتسيغه وتقاوم آثاره الهادمة ، فتبقى كل منهما متميزة الشخصية ، موفورة القوى ، سليمة البناء : كما كان شأن الفارسية مع التركية ؛ والفرنسية مع الايطالية والاسبانية والبرتغالية .

---

(١) لم تترك اللغات المغلوبة فى هذه الأمثلة أثراً مذكوراً فى اللغتين الغالبتين .

(٣)

عوامل أخرى للاحتكاك اللغوي

هذا ، وفيما عدا العاملين السابقين ، توجد عوامل أخرى كثيرة تتيح الفرص للاحتكاك بين اللغات ولكنها أقل شأناً من هذين العاملين ، وأضعف منهما أثراً ؛ إذ ليس منها ما ينجم عنه صراع جدى ، أو يؤدى إلى نتائج ذات بال ..

ومن أهم هذه العوامل ما يلى :

١ ـــ اشتباك شعبين مختلفى اللغة أو شعوب مختلفة اللغات فى حرب طويلة الأمد . وذلك أن طول الاحتكاك بين الشعوب المتحاربة ينقل إلى لغة كل شعب منها آثاراً من لغات الشعوب الأخرى ، سواء فى ذلك لغات الحلفاء ولغات الأعداء . فاحتكاك الألمانية والفرنسية والانجليزية فى الحرب العالمية الأولى قد نقل إلى كل لغة منها مفردات من اللغتين الأخريين . و « حرب الثلاثين » التى نشبت بين حماة البروتستانتية وحماة الكاثوليكية ، وامتدت من سنة ١٦١٨ إلى سنة ١٦٤٨ ، أتاحت فرصاً كثيرة للاحتكاك بين الفرنسية والألمانية[١] ، فنقلت إلى كل منهما بعض مفردات من الأخرى . وحروب فرنسا مع إيطاليا قد نقلت إلى الفرسنية كثيراً من الكلمات المتعلقة بشئون الحرب والفنون الجميلة وما إلى ذلك من الأمور التى كانت اللغة الايطالية أوسع ثروة فيها من اللغة الفرنسية ؛ ونقلت كذلك إلى الايطالية عدداً غير يسير من الكلمات الفرنسية . والحروب الصليبية قد نقلت إلى كثير من اللغات الأوروبية ، وبخاصة إلى اللغة الفرنسية ، كثيراً من مفردات اللغة العربية ، ونقلت كذلك إلى بعض لهجات الأمم العربية بعض كلمات أوروبية .

---

(١) وذلك على الرغم من أن فرنسا لم تشترك اشتراكاً صريحاً إلا فى المرحلة الأخيرة من هذه الحرب (من سنة ١٦٣٥ إلى سنة ١٦٤٨) .

٢ ــ توثق العلاقات التجارية بين شعبين مختلفى اللغة . وذلك أن منتجات كل شعب تحمل معها أسماءها الأصلية ، فلا تلبث أن تنتشر بين أفراد الشعب الآخر وتمتزج بمتن لغته ؛ وكثرة الاحتكاك التجارى بين أفراد الشعبين ينقل إلى لغة كل منهما آثاراً من اللغة الأخرى .

٣ ــ توثق العلاقات الثقافية بين شعبين مختلفى اللغة . فإن ذلك ينقل إلى لغة كل منهما ، وبخاصة إلى لغة الكتابة ، آثاراً كثيرة من الأخرى . وهذه الآثار لا تقف عند حد المفردات ، بل تتجاوزها غالباً إلى الأساليب . والأمثلة على ذلك كثيرة فى تاريخ الأمم الحاضرة والغابرة . فاللغة العربية فى العصر العباسى ، وبخاصة لغة الكتابة ، قد انتقل إليها عن هذا الطريق كثير من آثار اللغتين الفارسية واليونانية . ولغة الكتابة بمصر فى العصر الحاضر ، سواء فى ذلك لغة العلوم ولغة الآداب ولغة الصحافة ، قد انتقل إليها عن هذا الطريق كثير من آثار اللغات الأوروبية وبخاصة الانجليزية والفرنسية .

* * *

غير أن علاقة هذه العوامل وما إليها بتطور اللغة وارتقائها أشد كثيراً من علاقتها بالصراع بين اللغات . فهى تتيح الفرص لاقتباس اللغات بعضها من بعض وتبادلها المفردات والأساليب ؛ بدون أن تحدث بينها صراعاً جدياً أو تحمل إحداها على محاولة التغلب على الأخرى . ولذلك عرضنا لبعض آثار هذه العوامل فى أثناء كلامنا على تطور اللغة فى الفصل الأول من هذا الكتاب[١] .

---

(١) انظر ص ٢٥ ــ ٢٩ .

(٤)

خلاصة هذا الفصل

هذا ، والنتائج التى تهدينا إليها دراستنا لهذا الموضوع هى النتائج نفسها التى انتهت إليها دراستنا لموضوع الفصل الأول :

١ ـــ فقد ظهر لنا مما تقدم فى هذا الفصل أن الطريق التى يسير فيها الصراع اللغوى ، والخطط التى ينهجها ، والمدة التى يستغرقها ، والنتائج التى ينتهى إليها ، ومبلغ تأثر كلتا اللغتين المتصارعتين بالأخرى ، والنواحى التى يبدو فيها هذا التأثر ، وما ينال عناصر كلتيهما من تغير وانحراف ، والمراحل التى تقطعها اللغة الغالبة فى سبيل انتصارها والمغلوبة فى سبيل انقراضها ، وموقف كل منهما حيال الأخرى فى حالة تكافؤ القوى ... كل أولئك وما إليه لا يجرى تبعاً للأهواء والمصادفات ، ولا وفقاً لإرادة الأفراد ، وإنما يخضع فى سيره لقوانين جبرية ثابتة ، مطردة النتائج ، واضحة المعالم ، محققة الآثار ، لا يد لأحد على وقفها أو تغيير ما تؤدى إليه .

فليس فى قدرة الأفراد أن يغيروا شروى نقير فى المناهج أو فى النتائج التى رسمتها قوانين هذا الصراع . فمهما أجهد الشعب نفسه فى نشر لغته فى شعب آخر ، ومهما رغب فى القضاء على لغة هذا الشعب أو إضعافها ، ومهما اتخذ فى سبيل ذلك من وسائل ، ومهما كان مؤيداً بسعة النفوذ وقوة السلطان ..، فإنه لن يحدث أكثر ولا أقل مما تقضى به قوانين الصراع اللغوى .

وإليك مثلا حالة اللغة العربية مع لغات الشعوب التى خضعت لسلطان العرب . فعلى الرغم من الجهود الجبارة التى بذلت للقضاء على لغات هذه الشعوب وإحلال العربية محلها ، وعلى الرغم مما كان للعرب حينئذ من قوة الشوكة ورقى اللغة ، واتساع الحضارة ، وعلى الرغم من أن هذه الشعوب قد دانت لسلطانهم

واعتنقت دياناتهم ، وعلى الرغم من الصلة الوثيقة بين الدين الاسلامى ولغة القرآن .. على الرغم من هذا كله فإن اللغة العربية لم يكتب لها النصر إلا فى المواطن التى تقضى قوانين الصراع اللغوى بانتصارها فيها ، ولم تستطع سبيلا إلى القضاء على لغات المواطن الأخرى .

٢ ـــ وقد ظهر لنا مما تقدم فى هذا الفصل أن أهم الأسباب التى تؤدى إلى الصراع اللغوى وأهم العوامل التى تؤثر فى سيره ونتائجه ترجع إلى ظواهر اجتماعية خالصة . فالفتح ، والاستعمار ، والحرب ، وهجرة السكان ، واحتكاك شعبين متجاورين ، وتوثق العلاقات التجارية أو الثقافية بين أمتين ... وما إلى ذلك من الأمور التى تقدم أنها تثير الصراع بين اللغات ، وتقارب الشعبين فى درجة الحضارة والثقافة أو تباعدهما فيها ، وتغلغل النفوذ السياسى أو الاقتصادى لشعب ما فى شعب آخر ، وامتزاج جالية ما بسكان الشعب المقيمة فى بلاده ... وما إلى ذلك من العوامل التى تبين فيما سبق مبلغ أثرها فى سير الصراع اللغوى وفى نتائجه ، كل هؤلاء وأولئك مرده إلى ظواهر الاجتماع وشئون العمران .

٣ ـــ غير أنه قد ظهر لنا كذلك أن بعض العوامل التى تؤثر فى هذا الصراع ترجع إلى أمور غير اجتماعية ؛ وذلك كعدد أفراد كل من الشعبين المشتبكين فى صراع لغوى ونسبته إلى عدد أفراد الشعب الآخر ، وتكاثف السكان فى أحدهما أو تخلخله بالنسبة إلى خصيمه ، وكاتفاق اللغتين المتصارعتين فى الفصيلة التى تنتيمان إليها أو اختلافهما فيها .

حقاً إن آثار هذه العوامل فى الصراع اللغوى ليست شيئاً مذكوراً بجانب آثار العوامل الاجتماعية ، كما ظهر ذلك من دراستنا السابقة . ولكن مهما يكن لهذه الآثار من أهمية نسبية ، فإن عليها تتوقف نواح كثيرة فى سير الصراع اللغوى وفى نتائجه .

وحقاً أنه من الممكن أن يرد معظم هذه الطائفة من العوامل بل جميعها إلى ظواهر الاجتماع . فتكاثف السكان أو تخلخلهم وانتماء اللغتين إلى فصيلة واحدة أو إلى فصيلتين مختلفتين .. كل ذلك يمكن أن يعد هو نفسه نتيجة لأمور تتصل

بالحياة الاجتماعية ، وشئون العمران ، ومبلغ الصلات بين الشعوب . ولكن الآثار التى تنجم عن هذه الطائفة من العوامل فى الصراع اللغوى لا تتصل بظواهر الاجتماع إلا عن طريق غير مباشر ، فهى تنجم مباشرة عن أمور غير اجتماعية فى ذاتها ، وإن كان من الممكن رد هذه الأمور إلى ظواهر الاجتماع .

الفصل الثالث

تفرع اللغة الواحدة

الى لهجات ولغات (١)

يرجع السبب الرئيسى فى هذا التفرع إلى انتشار اللغة فى مناطق مختلفة واسعة ، واستخدامها لدى جماعات كثيرة العدد وطوائف مختلفة من الناس .

ولكن هذا السبب الرئيسى لا يؤدى عن طريق مباشر إلى تفرع اللغة ، بل يتيح الفرص لظهور عوامل أخرى تؤدى إلى هذه النتيجة .

وتبدو هذه النتيجة فى صورتين : إحداهما إنشعاب اللغة الواحدة إلى « لهجات محلية Dialectes locaux » يتكلم بكل لهجة منها منطقة خاصة من مناطق هذه اللغة ؛ والأخرى انشعاب اللغة الواحدة إلى « لهجات اجتماعية Dialectes sociaux » تتكلم بكل لهجة منها طبقة خاصة من طبقات السكان .

وسنقف الفقرة الأولى من هذا الفصل على دراسة السبب الرئيسى فى التفرع وهو انتشار اللغة .

---

(١) من الواضح أن هذا التفرع مظهر هام من مظاهر التطور اللغوى . فموضوع هذا الفصل يعد فى الحقيقة متمماً لموضوعات الفصل الأول . ولما كان الفصل الثانى نفسه يعالج بعض نواحى التطور اللغوى (انظر التعليق المدون ص ٨١) ، لذلك يمكن أن تعد جميع فصول الكتاب الثلاثة دراسة للتطور اللغوى من مختلف نواحيه .

ونقف الفقرة الثانية على دراسة العوامل التى يتيحها السبب الرئيسى السابق ، وتؤدى عن طريق مباشر إلى تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات .

ونقف الفقرتين الثالثة والرابعة على دراسة الصورة الأولى من صور هذا التفرع وهى التى تتمثل فى انشعاب اللغة الواحدة إلى « لهجات محلية » ؛ والفقرتين الخامسة والسادسة على دراسة الصورة الأخرى من صور هذا التفرع وهى التى تتمثل فى انشعاب اللغة الواحدة إلى « لهجات اجتماعية » .

ثم نختم الفصل بفقرة سابعة نستخلص فيها ما تهدينا إليه هذه الدراسة بصدد قوانين التفرع وأثر الظواهر الاجتماعية فى سيره .

(١)

انتشار اللغة وأسبابه

وأثره الرئيسي في التفرع اللغوي

تختلف اللغات الانسانية فى مبلغ انتشارها اختلافاً كبيراً ، فمنها ما تتاح له فرص مواتيه ، فينتشر فى مناطق واسعة من الأرض ، ويتكلم به عدد كبير من الأمم الانسانية ، كما حدث للاتينية والعربية فى العصور القديمة والوسطى ، وللانجليزية والاسبانية والبرتغالية والفرنسية والألمانية فى العصور الحديثة . ومنها ما تسد أمامه المسالك ، فيقضى عليه أن يظل حبيساً على منطقة ضيقة من الأرض وفئة قليلة من الناس ؛ كما حدث للأينو(١) والبسكية(٢) والليتونية(٣) . ومنها ما يكون حاله وسطاً بين هذا وذاك فلا تتسع مناطقه كل السعة ولا تضيق كل الضيق ؛ كما هو شأن الحبشية والفارسية .

هذا ، ولانتشار اللغة أسباب كثيرة يرجع أهمها إلى ما يلى :

١ — **أن تشتبك اللغة فى صراع مع لغة أو لغات أخرى** ، وتقضى نواميس الصراع اللغوى المتقدم ذكرها فى الفصل السابق أن يكتب لها النصر ، فتحتل مناطق اللغة أو اللغات المقهورة ، فيتسع بذلك مدى انتشارها ، وتدخل أمم جديدة فى

---

(١) يتكلم بها الآن نحو عشرين ألفاً من سكان جزر هوكادو وساخالين وشيكوتان من جزر اليابان . (انظر ص ١٩٠ رقم ٣ من الطبعة السادسة لكتابنا « علم اللغة ») .

(٢) يتكلم بها الآن نحو ٨٠٠٠٠٠ من الباسكيين الذين يقطنون جبال البرانس الغربية فى العدوتين الفرنسية والاسبانية (انظر ص ١٩٣ رقم ١٢ من الطبعة السادسة لكتابنا « علم اللغة ») .

(٣) يتكلم به سكان ليتونيا الذين يبلغ عددهم الآن نحو مليونين (انظر ص ١٩٢ رقم ١١ من الطبعة السادسة لكتابنا « علم اللغة ») .

عداد الناطقين بها . كما حدث للاتينية فى العصور القديمة إذ تغلبت على اللغات الأصلية لايطاليا وإسبانيا وبلاد الجول La Gaule (فرنسا وما إليها) والألب الوسطى والاليريا Illiyrie، فأصبحت لغة الحديث والكتابة فى منطقة واسعة فى القسم الجنوبى الغربى من أوروبا ، بعد أن كانت قديماً مقصورة على منطقة ضيقة فى وسط إيطاليا ، وهى منطقة اللاتيوم Latium(1) . وكما حدث للغة العربية إذ تغلبت على كثير من اللغات السامية الأخرى وعلى اللغات القبطية والبربرية والكوشيتية ، حتى بلغ الآن عدد الناطقين بها نحو ١٠٠ مليون ينتمون إلى نحو خمس عشرة أمة ، بعد أن كانوا قديماً لا يتجاوزون بضعة آلاف يقطنون منطقة ضيقة فى الجنوب الغربى من بلاد العرب(2) . وكما حدث للألمانية إذ طغت على مساحة واسعة من المناطق المجاورة لها بأوربا الوسطى (بألمانيا وسويسرا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنمسا .. الخ) وقضت على لهجاتها الأولى ، فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لأكثر من مائة مليون من سكان أوروبا ، بعد أن كانت قديما مقصورة على بعض المقاطعات الألمانية(3)

٢ ـــ أن ينتشر أفراد شعب ما ، على أثر هجرة أو استعمار ، فى مناطق جديدة بعيدة عن أوطانهم الأولى ، ويتكون من سلالاتهم بهذه المناطق أمة أو أمم متميزة كثيرة السكان ، فيتسع بذلك مدى انتشار لغتهم ، وتتعدد الجماعات الناطقة بها ويكثر أفرادها . والأمثلة على ذلك كثيرة فى العصور الحديثة . فقد نجم عن استعمار الانجليز السكسون لأمريكا الشمالية واستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا أن انتشرت الانجليزية فى هذه المناطق المبعثرة ، فبلغ عدد الناطقين بها نحو ثلثمائة مليون موزعين على مختلف قارات الأرض ، بعد أن كانت قديماً محصورة فى منطقة ضيقة من الجزر البريطانية(4) . ونجم عن الاستعمار الاسبانى فى الدنيا الجديدة أن

---

(١) انظر ص ٨٤ .

(٢) انظر آخر ص ٨٤ .

(٣) انظر آخر ص ٩٣ وأول ص ٩٤ .

(٤) يتكلم كذلك فى اتحاد جنوب أفريقيا بلغة تسمى الأفريكانية ، وهى منحدرة من الهولاندية التى كان يتكلم بها الهولنديون ، وقد كانوا أول من أقام فى مستعمرة « الكاب » ، ومن اللغة الفرنسية التى كان يتحدث بها المهاجرون (الهوجنوت) الذين قدموا فيما بعد إلى الكاب . وتعد الافريكانية إحدى اللغتين الرسميتين فى الاتحاد . أما الأخرى فهى اللغة الانجليزية . ويتخاطب بالأفريكانية معظم أهل جنوب أفريقيا بطلاقة .

أصبحت الاسبانية لغة بلاد المكسيك وجزر الفلبين وجميع دول أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية ما عدا البرازيل ؛ فبلغ عدد الناطقين بها نحو مائة مليون ينتمون إلى نحو خمس عشرة أمة ، بعد أن كانت محصورة فى منطقة ضيقة فى الجنوب الغربى من أوروبا . ونجم عن الاستعمار البرتغالى فى الدنيا الجديدة وأفريقيا والأوقيانوسية أن أصبحت البرتغالية لغة لسكان البرازيل بأمريكا الجنوبية وسكان المستعمرات البرتغالية بأفريقيا وجزر المحيط الهندى ؛ فبلغ عدد الناطقين بها نحو ٥٠ مليون ينتمون إلى عدة أمم ، بعد أن كانت محصورة فى منطقة ضيقة فى بلاد البرتغال نفسها . وقد نجم عن استعمار الفرنسيين لبعض مناطق من كندا أن أصبحت الفرنسية لغة لهذه المناطق .

٣ ــ أن يتاح لجماعة ما أسباب مواتية للنمو الطبيعى فى أوطانها الأصلية نفسها ، فيأخذ عدد أفرادها وطوائفها فى الزيادة المطردة ، وتنشط حركة العمران فى بلادها ، فتكثر فيها المدن والقرى وتتعدد الأقاليم والمناطق ، فيتسع تبعاً لذلك نطاق لغتها ومدى انتشارها : كما حدث لليابانية والفرنسية والايطالية . فبفضل هذا العامل بلغ عدد الناطقين باليابانية فى اليابان نفسها ما يزيد على سبعين مليوناً(١) ؛ وبفضله كذلك ، مع مساعدة العاملين السابقين ، بلغ عدد الناطقين بالفرنسية نحو ٥٠ مليوناً(٢) وبالايطالية نحو ٤٥ مليوناً(٣) .

* * *

هذا ، ومتى انتشرت اللغة فى مناطق واسعة من الأرض تحت تأثير عامل من العوامل السابق ذكرها ، وتكلم بها جماعات كثيرة العدد وطوائف مختلفة من الناس ، استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمداً طويلا . فلا تلبث أن تنشعب إلى لهجات ، وتسلك كل لهجة من هذه اللهجات فى سبيل تطورها منهجاً يختلف عن

---

(١) يدل آخر تعداد رسمى قبيل الحرب الأخيرة على أن عدد الشعب اليابانى بلغ ٧٣,١١٤,٣٠٨ ، وأن عدد سكان الامبراطورية اليابانية قد بلغ ١٠٥,٢٦٦,١٠١ .

(٢) منهم بفرنسا نحو ٤١ مليونا والباقى ببلجيكا وسويسرا وكندا والمستعمرات الفرنسية .

(٣) معظمهم بايطاليا نفسها والباقى بسويسرا والمستعمرات الايطالية .

منهج غيرها ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينها وبين أخواتها حتى تصبح لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها . وبذلك يتولد عن اللغة الأولى فصيلة أو شعبة من اللغات يختلف أفرادها بعضها عن بعض فى كثير من الوجوه . ولكنها تظل مع ذلك متفقة فى وجوه أخرى ، إذ يترك الأصل الأول فى كل منها آثاراً تنطق بما بينها من صلات قرابة ولحمة نسب لغوى . وكثيراً ما يبقى الأصل الأول مدة ما لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللغات المتفرعة منه ، ولكنه لا يلبث أن يتنحى عن ذلك بعد أن يكتمل نمو هذه اللغات .

ولهذا القانون خضعت اللغات الانسانية من مبدأ نشأتها إلى العصر الحاضر . فاللغة الهندية ـــ الأوروبية الأولى قد انشعبت فى ضحى الانسانية إلى مجموعات كثيرة ، وكل مجموعة منها تفرعت إلى عدة طوائف ، وكل طائفة انقسمت إلى شعب وكل شعبة إلى لغات .. وهكذا دواليك[١] . ومثل هذا حدث للغة السامية ـــ الحامية الأولى[٢] ولجميع الفصائل اللغوية الأخرى[٣] .

وقد شهدت عصورنا التاريخية نفسها كثيراً من آثار هذا القانون . فاللغة اللاتينية ، وهى إحدى لغات الفرع الايطالى المنشعب من الهندية ـــ الأوروبية ، قد أخذت هى نفسها ، فى أواخر العصور القديمة وفى العصور الوسطى ، تنشعب إلى عدد كبير من اللهجات ، وأخذت كل لهجة من هذه اللهجات تسلك فى سبيل تطورها منهجاً يختلف من منهج أخواتها ، حتى انفصلت عنها انفصالا تاما ، وأصبحت لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها . وقد بقيت اللاتينية مدة ما لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللغات المتفرعة منها (الفرنسية ، الايطالية ، الاسبانية ، البرتغالية ، لغة رومانيا ..) ؛ ولكنها لم تلبث أن تنحت عن ذلك بعد أن اكتمل نمو هذه اللغات .

---

(١) انظر ص ١٨٠ : ١٨٤ من الطبعة السادسة لكتابنا « علم اللغة » .

(٢) انظر ص ١٨٤ : ١٨٨ من الطبعة السادسة لكتابنا « علم اللغة » .

(٣) انظر ص ١٨٩ : ١٩٨ من الطبعة السادسة لكتابنا « علم اللغة » .

والعصر الحاضر نفسه يشهد كثيراً من آثار هذا القانون . فلانتشار اللغة الاسبانية فى مناطق واسعة مبعثرة ، ولاختلاف الطوائف المتكلمة بها ، أخذت تفقد وحدتها ، فانشعبت عنها فى أمريكا الجنوبية لهجات كثيرة تختلف كل منها عن الاسبانية الأصلية اختلافاً غير يسير فى كلماتها وأصواتها ؛ بل إن بعض هذه اللهجات أخذ يختلف عن الاسبانية الأصلية فى القواعد نفسها(١) . ومثل هذا حدث بين البرتغالية فى البرتغال والبرتغالية فى البرازيل . فقد وصل الخلاف بينهما إلى القواعد نفسها ، بل إلى شكل الرسم كذلك(٢) . وهذا هو ما يحدث الآن للانجليزية والألمانية ؛ فقد أخذت انجليزية الولايات المتحدة بأمريكا تختلف عن انجليزية الجزر البريطانية فى كثير من المفردات وأساليب النطق(٣) ؛ وأخذت ألمانية سويسرا تبتعد عن أصلها ويزداد تأثرها بجارتها الفرنسية ، حتى توشك أن تكون لهجة متميزة عن ألمانية الألمان . وقد اتسعت مسافة الخلف بين اللهجات المنشعبة عن العربية حتى أصبح بعضها غريباً عن بعض : فلهجة العراق فى العصر الحاضر مثلا لا يكاد يفهمها المصرى . غير أنه قد خفف من أثر هذا الانقسام اللغوى بقاء العربية الأولى بين هذه الشعوب لغة أدب وكتابة ودين .

---

(١) وقد ألف بعض العلماء كتباً مستقلة فى قواعد بعض هذه اللهجات ككتاب الأستاذ لنز Lenz فى قواعد لهجة شيلى .

(٢) جاء بجريدة الأهرام فى عددها الصادر يوم ٢٩ــ٣ــ١٩٤٤ بصدد اتفاق هجائى لغوى بين البرتغال والبرازيل ما يلى :

« تلقت وزارة الخارجية من معالى محمود فخرى باشا وزير مصر المفوض فى اسبانيا والبرتغال تقريراً عن اتفاق هجائى لغوى عقد أخيراً بين الحكومتين البرتغالية والبرازيلية الغرض الأساسى منه تنظيم اللغة البرتغالية وتنقيحها ، وذلك بتوحيد شكلها الهجائى ونطق كلماتها . وكان الوصول إلى وضع هذا الاتفاق بفضل مساعى كبار الكتاب فى البلدين . وهذا أول اتفاق من نوعه يعزز الفكرة التى ترمى إلى توحيد الشعوب التى تتكلم لغة واحدة . وختم الوزير المفوض تقريره بالاعراب عن أمنية هى أن تعمل البلاد العربية على تنظيم لغتنا وتوحيد اصطلاحاتها وتعميم نطقها بين مختلف الشعوب الناطقة بالضاد .

(٣) حتى إن الانجليز ليسخرون من اللهجة الأمريكية ، كما يسخر الأمريكان من لهجة الانجليز ، ولا يكتم كل منهم سخريته هذه حتى فى أحرج الأوقات وأدعاها إلى نسيان الفروق . يدل على ذلك ما جاء فى نشرة وزعتها القيادة الأمريكية على قواتها الموجودة فى بريطانيا فى أثناء الحرب الأخيرة ، إذ تقول مخاطبة أفراد هذه القوات « ولا تسخر باللهجة البريطانية لأن لهجتك قد تكون مثار سخرهم ؛ ولكنهم أكثر أدباً من أن يظهروا لك ذلك » . (جريدة الأهرام بتاريخ ١٣ــ٧ــ١٩٤٢) .

(٢)
العوامل المباشرة فى تفرع اللغة

فالسبب الرئيسى فى تفرع اللغة إلى لهجات ولغات هو سعة انتشارها . غير أن هذا السبب لا يؤدى إلى ذلك بشكل مباشر ، بل يتيح الفرص لظهور عوامل أخرى تؤدى إلى هذه النتيجة . وباستقراء هذه العوامل فى الماضى والحاضر يظهر لنا أن أهمها يرجع إلى الطوائف الآتية :

١ – **عوامل اجتماعية سياسية** تتعلق باستقلال المناطق التى انتشرت فيها اللغة بعضها عن بعض وضعف السلطان المركزى الذى كان يجمعها ويوثق ما بينها من علاقات . وذلك أن اتساع الدولة ، وكثرة المناطق التابعة لها ، واختلاف الشعوب الخاضعة لنفوذها ... كل ذلك يؤدى غالباً إلى ضعف سلطانها المركزى وتفككها من الناحية السياسية ، وانقسامها إلى دويلات أو دول مستقل بعضها عن بعض . وغنى عن البيان أن انفصام الوحدة السياسية يؤدى إلى انفصام الوحدة الفكرية واللغوية .

٢ – **عوامل اجتماعية نفسية** تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق فى النظم الاجتماعية والعرف والتقاليد والعادات ومبلغ الثقافة ومناحى التفكير والوجدان . فمن الواضح أن الاختلاف فى هذه الأمور يتردد صداه فى أداة التعبير .

٣ – **عوامل جغرافية** تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق فى الجو وطبيعة البلاد وبيئتها وشكلها وموقعها ... وما إلى ذلك ، وفيما يفصل كل منطقة منها عن غيرها من جبال وأنهار وبحار وبحيرات ... وهلم جرا . فلا يخفى أن هذه الفروق والفواصل الطبيعية تؤدى ، عاجلا أو آجلا ، إلى فروق وفواصل فى اللغات .

٤ ــ **عوامل شعبية** تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق فى الأجناس والفصائل الانسانية التى ينتمون إليها والأصول التى انحدروا منها . فمن الواضح أن لهذه الفروق آثاراً بليغة فى تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات .

٥ ــ **عوامل جسمية فيزيولوجية** تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق فى التكوين الطبيعى لأعضاء النطق(١) . فمن المحال ، مع فروق كهذه ، أن تظل اللغة محتفظة بوحدتها الأولى أمداً طويلا .

* * *

فانقسام المتكلمين باللغة الواحدة تحت تأثير هذه العوامل إلى جماعات متميزة ، واختلاف هذه الجماعات بعضها عن بعض فى شئونها السياسية والاجتماعية ، وفى خواصها الشعبية والجسمية والنفسية ، وفيما يحيط بها من ظروف طبيعية وجغرافية ، كل ذلك وما إليه يوجه اللغة عند كل جماعة منها وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها ، ويرسم لتطورها فى النواحى الصوتية والدلالية وغيرها منهجاً يختلف عن منهج أخواتها ، فتتعدد مناهج التطور اللغوى حسب تعدد الجماعات ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بين اللهجات الناشئة عن هذا التعدد ، حتى تصبح كل لهجة منها لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها .

* * *

ويبدأ الخلاف بين هذه اللهجات من ناحيتين : إحداهما الناحية المتعلقة بالصوت ، فتختلف الأصوات (الحروف) التى تتألف منها الكلمة الواحدة ، وتختلف طريقة النطق بها تبعاً لاختلاف اللهجات ؛ والأخرى الناحية المتعلقة بدلالة المفردات ، فتختلف معانى بعض الكلمات باختلاف الجماعات الناطقة بها .

أما القواعد La Grammaire سواء فى ذلك ما يتعلق منها بالبنية

---

(١) ترجع هذه الفروق إلى عوامل كثيرة منها العاملان الجغرافى والشعبى المشار إليهما آنفاً تحت رقمى ٣ ، ٤ .

(المورفولوجيا)[1] . أو ما يتعلق منها بالتنظيم (السنتكس)[2] ، فلا ينالها فى المبدأ كثير من التغيير . وإليك مثلا اللهجات العامية التى انشعبت عن العربية بالعراق والشام والحجاز واليمن ومصر وبلاد المغرب ... ؛ فإنه لا يوجد بينها إلا فروق ضئيلة فى نظام تكوين الجملة وتغيير البنية وقواعد الاشتقاق والجمع والتأنيث والوصف والنسب والتصغير ... وما إلى ذلك ؛ على حين أن مسافة الخلف بينها فى الناحيتين الصوتية والدلالية قد بلغت حداً جعل بعضها غريباً على بعض كما سبقت الاشارة إلى ذلك[3] .

ولكن هذه الوحدة فى القواعد لا تقوى على مقاومة عوامل التفريق إلا لأجل معلوم ؛ ثم تهن قواها وتستسلم لهذه العوامل فيصيبها منها ما أصاب الصوت والدلالة من قبل . وحينئذ تقوى وجوه الخلاف بين اللهجات ؛ وتبدأ مرحلة تحولها إلى لغات مستقلة ، ولا تنفك تذهب حثيثاً فى هذا الطريق حتى تبلغ غايته .

غير أنه يبقى بها ، على الرغم من هذا كله ، وجوه شبه قريبة أو بعيدة فى أصول المفردات وبعض مظاهر القواعد العامة . وإليك مثلا طوائف اللغات الهندية ـــ الأوربية : فعلى الرغم من استحكام ما بينها من حلقات الخلاف ، فإن الأصل الأول قد ترك فى كل منها آثاراً تنطق بما بينها من صلات قرابة وتشهد بتفرعها عن أرومة واحدة .

* * *

ومن هذا يتبين أن اللغة لا تموت حتف أنفها . فما لم تصرعها لغة أخرى على الوجوه التى تقدم شرحها فى الفصل السابق لا يتطرق إليها الفناء . وخلودها هذا يبدو فى أحد مظهرين : فأحياناً تحتفظ بوحدتها ، وذلك إذا ظلت حبيسة على منطقة ضيقة وفئة قليلة ؛ وأحياناً تنشعب إلى لهجات ولغات ، وذلك إذا انتشرت فى مساحات واسعة من الأرض ، وتكلم بها طوائف مختلفة من الناس .

---

(١) انظر ص ٧ من الطبعة السادسة لكتابنا « علم اللغة » .

(٢) انظر ص ٧ ، ٨ من الطبعة السادسة لكتابنا « علم اللغة » .

(٣) انظر ص ١١٣ .

(٣)
اللهجات المحلية وصراعها بعضها مع بعض (١)

يترتب على القانون السابق أن تختلف اللهجات فى الأمة الواحدة تبعاً لاختلاف أقاليمها وما يحيط بكل إقليم منها من ظروف وما يمتاز به من خصائص . وقد جرت عادة علماء اللغة أن يطلقوا على هذا النوع من اللهجات اسم اللهجات المحلية Dialects Locaux . وتختلف هذه اللهجات بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً فى المساحة التى يشغلها كل منها : فمنها ما يشغل مقاطعة كاملة من مقاطعات الدولة ؛ ومنها ما تضيق منطقته فلا تشمل إلا بضع قرى متقاربة ؛ ومنها ما يكون وسطاً بين هذا وذاك . وكثيراً ما تختلف هذه المناطق اللغوية فى حدودها عن المناطق المصطلح عليها فى التقسيم الادارى والسياسى . فقد تقسم القرى التى تتألف منها منطقة لغوية واحدة بين مديريتين أو أكثر ؛ وقد يجتمع فى مديرية واحدة أو مركز واحد عدد كبير من المناطق اللغوية . ولدينا نحن المصريين على ذلك شواهد كثيرة فى مختلف أقاليم الصعيد والوجه البحرى .

وتعمل كل لهجة من اللهجات المحلية على الاحتفاظ بشخصيتها وكيانها ، فلا تدخر وسعاً فى محاربة عوامل الابتداع والتغيير فى داخل منطقتها ، ولا تألو جهداً فى درء ما يوجه إليها من خارجها من هجمات .

أما محاربة عوامل الابتداع فى داخل منطقتها فتتم بفضل العلاقات الوثيقة التى

(١) عرضنا هنا لموضوع الصراع بين لهجات اللغة الواحدة لعلاقته الوثيقة بموضوع هذا الفصل وهو التفرع . وأما الصراع بين اللغات المختلفة الذى كان موضوع الفصل السابق فهو مستقل عن موضوع التفرع (انظر التعليق المدون ص ٨١) .

تربط الناطقين بها بعضهم ببعض وتربطهم ببيئتهم ومجتمعهم . وذلك أنه بقوة هذه العلاقات يقوى الضمير الجمعى ، وتتأكد سيطرة النظم الاجتماعية ، ويعظم نفوذها ، ويشتد بطشها بالمعتدين . فكل محاولة فردية للخروج على النظام اللغوى تلقى فى مجتمع قوى كهذا مقاومة عنيفة تكفل القضاء عليها فى مهدها . وبذلك تتقى اللهجة ما عسى أن يوجه إليها فى داخل منطقتها من محاولات الابتداع وعوامل التغيير .

وأما حمايته من اللهجات المجاورة لها فيرجع الفضل فيها إلى ضعف الصلات التى تربط أهلها بمجاوريهم ، وقلة فرص احتكاكهم بهم ، وما يبدونه فى العادة من نزوع إلى العزلة والاستقلال . ويظهر هذا على الأخص فى البيئات الزراعية التى تقل فيها وسائل المواصلات ، وتضعف حركة انتقال الأفراد ، ويكاد سكان كل منطقة يعيشون فى معزل عن سكان المناطق الأخرى . حقاً إن تزوج بعض الرجال فى هذه البيئات إلى نساء من غير مناطقهم ، وهجرة بعض الأفراد من بلادهم إلى البلاد المجاورة لها ، كل ذلك وما إليه يجلب إلى البلد عناصر أجنبية عنه . ولكن قلة عدد من ينفذ من الأجانب عن هذه الطرق وما شاكلها ، وانتماءهم فى الأصل إلى مناطق لغوية مختلفة ، ودخولهم البلد فرادى وفى أزمنة متباعدة ، وعدم وجود رابطة تربطهم بعضهم ببعض ، وإقامة كل منهم بين مجموعة من الناس تختلف لهجة أفرادها عن لهجته ، وما يبديه أهل المنطقة حيال لهجاتهم من سخرية وازدراء ، وصعوبة فهم حديثهم أحياناً ... كل ذلك وما إليه لا يحول دون تأثر لهجة البلد بلهجاتهم فحسب ، بل من شأنه كذلك أن يحملهم على محاكاة لسان المنطقة التى يقيمون فيها . وأما البيئات التجارية والصناعية والساحلية التى يكثر فى العادة احتكاك أهلها بغيرهم ، فيرجع الفضل فى حماية لهجاتها إلى قلة عدد الأجانب بالنسبة إلى سكانها الأصليين ، وانتمائهم إلى مناطق لغوية مختلفة ، وعدم وجود رابطة تربطهم بعضهم ببعض ، وقصر مدة إقامتهم ، لأن معظمهم يفد إلى البلد فى شئون لا تقتضيه إلا إقامة ساعات أو أيام .

غير أنه قد يتاح أحياناً للهجة محلية فرص للاحتكاك الدائم بلهجة أخرى . وحينئذ تشتبك اللهجتان فى صراع أهلى لا يختلف كثيراً فى مظاهره وطرقه عن

الصراع الذى ينشب بين لغتين مختلفتين والذى عالجناه فى الفصل السابق .

وينتهى هذا الصراع إلى إحدى نتيجتين : فأحياناً لا تكاد إحدى اللهجتين تؤثر فى الأخرى ، وذلك إذا تساوى أهل المنطقتين فى الثقافة والقوة والنفوذ ؛ وأحياناً تتأثر إحداهما بالأخرى ، وذلك إذا كانت أقل منها فى مظهر من المظاهر السابقة .

وتختلف درجة التأثر باختلاف الأحوال : فأحياناً يكون يسيراً لا ينال إلا بعض مظاهر ؛ وأحياناً يكون عميقاً ينتهى بالقضاء على اللهجة المغلوبة .

فيكون يسيراً إذا لم تكن الفوارق كبيرة بين أهل المنطقتين فى الثقافة والنفوذ والسلطان . ويبدو هذا فى تأثر لهجة القرى بلهجة المدينة التى تجاورها أو يكون بها مقر المحافظة أو المركز ، أو فى تأثرها بلهجة البلد الذى يتخذ مقراً لنقطة البوليس أو للعمدية أو التى يقام فيها السوق الأسبوعى .. وهلم جرا . ففى هذه الحالات وما إليها يقف التأثر عند حد اقتباس الكلمات والتراكيب وطرق استخدام المفردات فى معانيها الحقيقية والمجازية ... وما إلى ذلك . أما الأساليب الصوتية وطريقة النطق بالحروف والكلمات فتظل بمنجاة من التأثر والتحريف . ومن ثم نرى أن القرى المحيطة بقاعدة محافظة من محافظات القطر المصرى قد تقتبس عنها كثيراً من ألفاظها وتراكيبها ومدلولات مفرداتها ؛ ولكن لهجاتها تظل سليمة فيما يتعلق بالأصوات وطريقة النطق بالكلمات . فالقرى المصرية التى تنقلب فى لهجاتها القاف العربية جيماً غير معطشة (جلنا = قلنا) قد تجاور مدينة تختلف عنها فى هذا الأسلوب الصوتى (بأن تقلب فيها مثلا القاف العربية همزة : ألنا= قلنا) ، فتقتبس عنها كثيراً من مفرداتها وتراكيبها ودلالاتها وأساليبها ؛ ولكن تظل طريقتها الصوتية حيال القاف العربية بمأمن من التأثر بطريقة المدينة ، اللهم إلا فى الكلمات التى تقتبسها منها .

أما إذا كانت الفوارق كبيرة بين أهل المنطقتين فى ناحية من النواحى السابق ذكرها ، فإن التأثر يكون عميقاً لدرجة تصل أحياناً إلى القضاء على اللهجة المغلوبة . ويحدث هذا فى حالتين :

الحالة الأولى : أن تكون إحدى المنطقتين خاضعة لسلطان المنطقة الأخرى . ففى هذه الحالة يكتب النصر للهجة المنطقة ذات السلطان ، على شريطة

أن لا تقل عن المنطقة الأخرى حضارة وثقافة وآداباً . والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ القديم والحديث . فلهجة باريس ، حيث مقر الحكومة والسلطان ، قد قضت على كثير من لهجات المقاطعات الفرنسية التى خضعت لنفوذ باريس ؛ وكذلك فعلت لهجة لندن مع عدد كبير من اللهجات الانجليزية الأخرى ؛ ولهجة مدريد مع اللهجات الأسبانية ؛ ولهجة روما فى العصور القديمة مع أخواتها الايطالية ؛ ولهجة قريش قبل الاسلام مع اللهجات المضرية الأخرى ... وهلم جرا[1] .

الحالة الثانية : أن تفوق إحدى المنطقتين المنطقة الأخرى فى ثقافتها وحضارتها وآدات لغتها . ففى هذه الحالة يكتب النصر للهجتها وإن لم يكن لها سلطان سياسى على المنطقة الأخرى . ولذلك أخذت اللهجة السكسونية بألمانيا تطارد اللهجات الألمانية الأخرى منذ القرن السادس عشر الميلادى ، أى قبل أن تتكون الدولة الألمانية الحديثة وقبل أن تظهر غلبة برلين[2] ؛ وأخذت التوسكانية Toscan بإيطاليا تقهر اللهجات الايطالية الأخرى منذ القرن الرابع عشر الميلادى ، أى قبل أن تتكون الدولة الايطالية الحديثة ، وقبل أن يظهر سلطان روما[3] ؛ وذلك بفضل ما كان لكل من السكسونية والتوسكانية من نتاج أدبى لا يذكر بجانبه نتاج إخواتها التى اشتبكت معها فى هذا الصراع .

وفى كلتا الحالتين السابقتين يختلف الصراع فى مدته وعنفه تبعاً لمبلغ قرب اللهجتين إحداهما من الأخرى ومبلغ ثقافة المنطقة المغلوبة . فيطول أمده ويشتد عنفه كلما كثرت وجوه الخلف بين اللهجتين أو قلت ثقافة الناطقين باللهجة المقهورة . فلهجة مدريد لم تقو بعد على التغلب على كثير من اللهجات الاسبانية الأخرى ، ولا تزال إلى الآن تلقى مقاومة عنيفة من جانبها ، وذلك لتفشى الجهل والأمية بين الناطقين بهذه اللهجات . ولهذا السبب نفسه لم يتم بعد للهجة القاهرة التغلب على

---

(١) ضربنا بعض هذه الأمثلة فى الفصل السابق بصدد صراع اللغات بعضها مع بعض وذلك لأنها تصلح أمثلة للأمرين معاً . فاللغات المضرية مثلا يصح اعتبار كل منها لغة مستقلة ، ويصح النظر إليها على أنها لهجات محلية قد انشعبت عن لغة واحدة . وكذلك لهجة روما قديماً مع اللهجات الايطالية .. وهلم جرا .

(٢) على أن برلين لم تكن مهد السكسونية ، بل انتقلت إليها كما انتقلت إلى غيرها .

(٣) على أن روما لم تكن مهد الايطالية الحديثة ، بل انتقلت إليها كما انتقلت إلى غيرها .

لهجات المناطق المصرية المجاورة لها . وفى القسم الفرنسى اللغة من سويسرا لا تزال اللهجات المحلية تقاوم الفرنسية الفصحى فى المناطق الكاثوليكية (فاليه ، فريبورج ... Valais, Fribourg...) ، على حين أنه قد تم انقراض هذه اللهجات أو كاد فى المناطق البروتستانتية (نيوشاتل ، جنيف ...) ؛ وذلك لأن المناطق البروتستانتية من هذا القسم أرقى ثقافة وعلماً من المناطق الكاثوليكية وأقدم منها عهداً بالمدارس . ولسان باريس قد تغلب بسهولة على اللهجات التى كانت منتشرة فى أقليمى السين واللوار ، لقلة وجوه الخلف بينه وبينها ، على حين أنه لم يقو بعد على التغلب على لهجات جنوب فرنسا ولا يزال يلقى منها مقاومة عنيفة ، لكثرة الفروق التى تفصلها عنه .

هذا ، ويسير تغلب لهجة على أخرى على السنن نفسه الذى يسير عليه تغلب اللغات المختلفة بعضها على بعض والذى أشرنا إليه فى الفصل السابق(١) . ففى المرحلة الأولى تقذف اللهجة الغالبة اللهجة الأخرى بطائفة كبيرة من مفرداتها فتوهن بذلك متنها الأصلى وتجرده من كثير من مقوماته . ولكن اللهجة المغلوبة تظل طوال هذه المرحلة محتفظة بمخارج حروفها وأساليبها فى نطق الكلمات . فينطق أهلها بألفاظهم الأصلية وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة طبقاً لأسلوبهم الصوتى ومخارج حروفهم ، حتى إنهم ليستبدلون فى الكلمات الدخيلة بالحروف التى لا يوجد لها نظير لديهم حروفاً قريبة منها من حروف لهجتهم . وفى المرحلة التالية تتسرب إلى اللهجة المغلوبة أصوات اللهجة الغالبة ومخارج حروفها وأساليبها فى نطق الكلمات ؛ فينطق أهل اللهجة المغلوبة بألفاظهم الأصيلة وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة من المخارج نفسها وبالطريقة نفسها التى يسير عليها النطق فى اللهجة الغالبة ، فيزداد بذلك انحلال اللهجة المغلوبة ويؤذن نجمها بالأفول . ولكنها تظل طول هذه المرحلة مستبسلة فى الدفاع عن قواعدها الصرفية والتنظيمية (المورفولوجيا والسنتكس) وفى مقاومة قواعد اللهجة الغالبة ، إن كانت تختلف عنها فى القواعد(٢) . فيركب أهلها

---

(١) انظر ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) لا يكون الاختلاف فى العادة كبيراً فى القواعد بين اللهجات المنشعبة من لغة واحدة قبل أن يستقل بعضها عن بعض وتصبح لغات منفصلة كما سبقت الاشارة إلى ذلك فى آخر ص ١١٦ وأول ١١٧ .

جملهم ويصرفون كلماتهم وفق أساليبهم الأولى . وفى المرحلة الأخيرة تضعف هذه المقاومة شيئاً فشيئاً ، فتأخذ قواعد اللهجة الغالبة فى الاستيلاء على الألسنة حتى يتم لها الظفر،فيتم بذلك الاجهاز على اللهجة المغلوبة . غير أنها كثيراً ما تترك فى ألسنة أهلها بعض آثار من قواعدها القديمة . فكثير من سكان جنوب فرنسا لا يزالون يؤلفون عباراتهم فى صور تختلف عن قواعد الفرنسية الفصحى ، ولكنها تتفق مع قواعد لهجاتهم المندثرة .

(٤)

نشأة لغة الدولة أو لغة الكتابة

واللهجة التي يتاح لها التغلب فى أمة ما على بقية أخواتها أو على معظمها تصبح عاجلا أو آجلا « لغة الدولة » أو ما يطلق عليه اسم « اللغة القومية » أو « اللغة الفصحى » أو « لغة الكتابة » . فتعلم وحدها فى مدارس الدولة ، ويجرى بها تدريس المواد المختلفة فى معاهدها وتؤلف بها الكتب والصحف والمجلات ، وتصدر بها المكاتبات الرسمية وغيرها ، وتستخدم فى مختلف نواحى الوعظ والخطابة ، وتلقى بها الأوامر ويجرى بها التخاطب فى الجيش ... وهلم جرا[١] . فقد ترتب على تغلب لهجة باريس على معظم أخواتها أن أصبحت هى « لغة الدولة » بفرنسا ؛ وعليها وحدها يطلق الآن اسم اللغة الفرنسية . وهذا هو ما حدث عقب تغلب لهجة لندن بانجلترا ومدريد بإسبانيا واللهجة السكسونية بألمانيا والتوسكانية بإيطاليا ، فقد أصبحت هذه اللهجات هى اللغات الرسمية ، وعليها وحدها يطلق الآن اسم اللغات الانجليزية والاسبانية والألمانية والايطالية .

وتسلك لغات الكتابة فى تطورها طريقاً خاصة تختلف عن الطريق التى تسلكها لغات المحادثة ، كما سيظهر ذلك فى الفقرة التالية . ولذلك نرى أن لغة

(١) قد لا يكون للأمة أى لغة قومية مستقلة ، كما هو شأن النمسا ، فإن لغتها هى الألمانية ، وقد يكون للدولة أكثر من لغة رسمية واحدة ، كما هو شأن سويسرا ، فإن بها ثلاث لغات رسمية : الألمانية والفرنسية والايطالية . وقد تكون اللغات الرسمية ولغة الكتابة فى الأمة هى اللغة القديمة التى انشعبت منها لهجتها ، كما كان شأن اللاتينية بفرنسا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال ورومانيا ، وكما هو شأن اللغة العربية الآن بمصر وبلاد العرب وشمال افريقيا . وقد تكون اللغة القومية لغة ميتة أحياها المجتمع فى صورة ما وجعلها لغة تخاطب وكتابة ، كما هو شأن العبرية فى إسرائيل .

الكتابة مع اتفاقها فى المبدأ مع لهجة المحادثة الغالبة ، لا تلبث فيما بعد أن تختلف عنها فى كثير من الشئون ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينهما حتى تستقل كل منهما عن الأخرى . فلغة الكتابة بفرنسا تختلف الآن عن لهجة المحادثة الباريسية اختلافاً غير يسير . وكذلك الشأن فى انجلترا ، فقد بعدت اللهجة الدارجة لأهل لندن الآن بعداً كبيراً عن اللغة الفصحى ، حتى إن بعض العلماء قد ألف فيها معجمات خاصة(١) .

---

(١) من هؤلاء العلامة أريك بارتروج (انظر كلمة عن معجمه فى اللغة الدارجة لأهل لندن فى جريدة المصرى عدد ٢١ــــ٥ــــ١٩٥٠) .

(٥)

اختلاف نواحي اللغة الفصحى باختلاف فنون القول

لغة الآداب وخصائصها وأنواعها : الشعر والنثر

وظيفتا اللغة : الدلالة والايحاء

كما تنشعب لغة المحادثة إلى لهجات مختلفة تبعاً لاختلاف الأقاليم وما يحيط بكل إقليم من ظروف وما يمتاز به من خصائص ، تنشعب كذلك لغة الكتابة أو اللغة الفصحى إلى شعب مختلفة تبعاً لاختلاف فنون القول التى تستخدم فيها ، وما يمتاز به كل فن منها : الشعر ؛ النثر الأدبى ؛ الخطابة ؛ القصة ؛ الرسائل ؛ التاريخ ؛ القانون ؛ تدوين العلوم ... الخ . وذلك أن كل فن من هذه الفنون يختلف عما عداه فى طبيعته ، وأغراضه البيانية ، ومناهج الاستدلال فيه ، ومقدار صلته بكل من الناحيتين الوجدانية والادراكية ، ومدى إقبال الجمهور عليه ، وأثره فى نفسه ، وتلاؤمه مع اتجاهاته وحاجاته ، ومبلغ نشاط المشتغلين به ، وما يخترعونه فيه من اصطلاحات ويدخلونه من أساليب ويقتبسونه عن اللغات الأجنبية من مفردات وأفكار ... وهلم جرا . وغنى عن البيان أن الاختلاف فى هذه الأمور وما إليها يؤدى حتماً إلى اختلاف كل فن من الفنون السابق ذكرها عما عداه فى مفرداته وأساليبه ومعانيه وأفكاره ، وطريقة علاجه للحقائق .. وما إلى ذلك . وقد تتسع مسافة الخلف بين هذه الفنون فتصبح لغة كل منها أشبه شيء بلغة مستقلة . وهذا هو المشاهد الآن فى كثير من اللغات الراقية . فبمجرد سماع عبارة فى اللغة العربية أو الانجليزية أو الفرنسية أو غيرها من اللغات الراقية يستطاع بسهولة معرفة الفن الذى تتصل به : ففى ضوء مفرداتها وأسلوبها ونظمها وتراكيبها وطريقة إبانتها عن الحقائق .. يستطاع بسهولة الحكم إن كانت شعراً أم خطابة أم كتابة رسائل أم مقالا صحفياً أم بحثاً علمياً ... وهلم جرا .

ومن أهم شعب اللغة الفصحى ما يسمونه لغة الأدب Langue Littéaire وهى التى تستخدم فى الأدب شعره ونثره . وتمتاز هذه الشعبة عن أخواتها بأن ما يتخذه غيرها وسيلة تتخذه هى غاية ، أو توجه إليه على الأقل أكبر قسط من العناية . ففى جميع الشعب الأخرى (لغة العلوم ، لغة الفلسفة ، لغة التاريخ ...) يتخذ الكلام مجرد وسيلة للتعبير عن الحقائق . أما فى هذه الشعبة فيتخذ البيان نفسه غرضاً فى ذاته ويوجه إلى تجويده أكبر قسط من المجهود . فأهم ما يقام له وزن فى لغة الأدب هو جمال القول ، ورقة الأسلوب ، وحسن البيان ، ورصانة اللفظ ، وفصاحة الكلام ، وبلاغة التعبير ... وهلم جرا .

وتنقسم الآداب نفسها إلى فنون كثيرة ، أهمها الشعر وملحقاته ، والنثر الأدبى ، والخطابة ، والقصة . ويختلف كل فن من هذه الفنون عن إخوته فى طبيعته ، وموضوعاته ، ومواطن استخدامه ، ومقدار صلته بالوجدان والادراك ، ومبلغ نشاط المشتغلين به ، وما يناله من تطور وتجديد ، وما يرمى إليه من أغراض .. الخ . وقد ترتب على ذلك أن كان لكل فن منها خصائصه اللغوية ومميزاته فى النظم والوزن ، والتأليف الموسيقى ، وجرس الألفاظ ، وتركيب الجمل وطريقة الاستدلال ، وشرح الحقائق ، ومنحى الأسلوب .

وأهم ما يمتاز به الشعر عن غيره أنه يتجه أولا وبالذات إلى مخاطبة الوجدان والعواطف لا الادراك والتفكير ، وأن غرضه الأساسى هو الايحاء بالحقائق والاحساسات لا شرح المسائل وتقريبها إلى الأذهان . ولذلك يظهر فيه تعمد الغموض والميل إلى الابهام ، ويسيطر على أساليبه الخيال ، ويكثر فى عباراته التشبيه واستخدام الكلمات والعبارات فى غير ما وضعت له عن طريق الكناية والمجاز ، ويبدو فيه النفور من تحليل الحقائق وكراهة التعمق فى الشرح والاستدلال . أما نظم العبارات فى أوزان خاصة فليس شرطاً أساسياً فى الشعر . فإن جنح كلام منظوم إلى الشرح والاستدلال والتعمق فى توضيح الحقائق ، وتغلبت فيه وجهة الدلالة على وجهة الايحاء ، فإنه لا يعد شعراً على الرغم من أوزانه وقوافيه . فالمتون المنظومة مثلا فى مختلف فروع العلوم لا تعد من الشعر فى شىء .

(٦)

اختلاف اللهجات فى البلد الواحد باختلاف طبقات الناس وفئاتهم

« اللهجات الاجتماعية Dialectes Sociaux »

تنشعب أحياناً لغة المحادثة فى البلد الواحد أو المنطقة الواحدة إلى لهجات مختلفة تبعاً لاختلاف طبقات الناس وفئاتهم : فيكون ثم مثلا لهجة للطبقة الاريستوقراطية ، وأخرى للجنود ، وثالثة للبحارة ، ورابعة للرياضيين ، وخامسة للبرادين ، وسادسة للنجارين .. وهلم جرا . ويطلق المحدثون من علماء اللغة على هذا النوع من اللهجات اسم « اللهجات الاجتماعية Dialectes Sociaux » تميزاً لها عن « اللهجات المحلية Dialectes Locaux » التى كانت موضوع حديثنا فى الفقرات الثلاثة الأولى من هذا الفصل[١] .

ويؤدى إلى نشأة هذه اللهجات ما يوجد بين طبقات الناس وفئاتهم من فروق فى الثقافة والتربية ، ومناحى التفكير والوجدان ، ومستوى المعيشة ، وحياة الأسرة ، والبيئة الاجتماعية ، والتقاليد والعادات ، وما تزاوله كل طبقة من أعمال وتضطلع به من وظائف ، والآثار العميقة التى تتركها كل وظيفة ومهنة فى عقلية المشتغلين بها ، وحاجة أفراد كل طبقة إلى دقة التعبير وسرعته وإنشاء مصطلحات خاصة بصدد الأمور التى يكثر ورودها فى حياتهم وتستأثر بقسط كبير من انتباههم ، وما يلجئون إليه من استخدام مفردات فى غير ما وضعت له أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعاتهم وأعمالهم .. وهلم جرا . فمن الواضح أن هذه

---

(١) يرجع الفضل فى هاتين التسميتين إلى العلامة بول باسى Paul Passy .

الفوارق وما إليها من شأنها أن توجه اللهجة فى كل طبقة وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها ؛ فلا تلبث أن تنشعب اللهجة العامة إلى لهجات تختلف كل منها عن أخواتها فى المفردات وأساليب التعبير وتكوين الجمل ودلالة الألفاظ ... وما إلى ذلك . وقد تذهب بعض اللهجات الاجتماعية بعيداً فى هذا الطريق ، فيشتد انحرافها عن الأصل الذى انشعبت منه ، وتتسع مسافة الخلف بينها وبين أخواتها حتى تكاد تصبح لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها : كما هو شأن اللهجات الفرنسية المستخدمة بين طبقات اللصوص والمجرمين وبعض طبقات العمال Argots des voleurs, des malfaiteurs, et des ouvriers .

ويزداد فى العادة انحراف اللهجة الاجتماعية عن أخواتها كلما كثرت الفوارق بين الطبقة الناطقة بها وبقية الطبقات ، أو كانت حياة أهلها قائمة على مبدأ العزلة عن المجتمع أو على أساس الخروج على نظمه وقوانينه . ولذلك كانت فى فرنسا لهجات الطبقات الدنيا من العمال ، واللهجات السرية لجماعات المتصوفين والرهبان ، ولهجات المجرمين واللصوص ومن إليهم ، من أكثر اللهجات انحرافا عن الأصل الذى انشعبت منه ، وبعداً عن المستوى العام لبقية اللهجات الاجتماعية الفرنسية . وكذلك الشأن فى انجلترا ، فلهجات اللصوص وقطاع الطريق والمجرمين الانجليز من أشد اللهجات بعداً عن اللغة الأصلية وعن المستوى العام للهجات الاجتماعية الانجليزية(١) .

ولا تظل اللهجات الاجتماعية جامدة على حالة واحدة ، بل تسير فى السبيل الارتقائى نفسه الذى تسير فيه اللهجات المحلية ، فيتسع نطاقها باتساع شئون الناطقين بها ، ومبلغ نشاطهم ، واحتكاكهم بالأجانب وبأهل الطبقات الأخرى من

---

(١) أخرج الأستاذ أريك بارتروج أستاذ اللغات الانجليزية معجماً للغة الرعاع ، قضى فى وضعه خمس سنوات . ويقع فى ثمانمائة صفحة احتوت على جميع الاصطلاحات التى يستعملها اللصوص وقطاع الطريق والمجرمون الانجليز من القرن السادس عشر حتى يومنا هذا . وقد استعان الأستاذ بارتروج لاخراج مؤلفه بالبحث فى ملفات القضايا الجنائية من عام ١٧٢٩ حتى الآن ، كما تحدث إلى كثير من قسس السجون وتردد على محال اجتماعات المجرمين . (انظر جريدة المصرى عدد ٢١ـــ٥ـــ١٩٥٠ تحت عنوان : « قاموس للغة المجرمين من الانجليز ») .

مواطنيهم ، وما يخترعونه من مصطلحات ويتواضعون عليه من عبارات ويقتبسونه عن اللغات الاجنبية من مفردات وأفكار ، وتختلف أساليبها وطرق تركيبها باختلاف العصور وتطور الظروف الاجتماعية المحيطة بالطبقات الناطقة بها . فلهجات العمال والمجرمين بفرنسا قد اختلفت بعد الحرب العظمى الأولى اختلافاً بيناً عما كانت عليه قبل ذلك ، واختلفت فى القرن العشرين اختلافاً كبيراً عما كانت عليه مثلا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . ولا أدل على ذلك من أن معظم القطع التى كتبها بتلك اللهجات فى القرن الخامس عشر الشاعر الفرنسى فرنسوا فيلون François Villon(١) لم يستطع بعد فى العصر الحاضر حل رموزها وفهم مدلولاتها .

وتؤثر اللهجات الاجتماعية فى لغة المحادثة العادية تأثيراً كبيراً ، فتستعير منها هذه اللغة كثيراً من التراكيب والمفردات ، وبخاصة المفردات التى خصص مدلولها العام واصطلح على إطلاقها على أمور خاصة تتعلق بفن أو حرفة وما إلى ذلك . فلغة المحادثة العادية بباريس فى العصر الحاضر قد دخل فيها عن هذا الطريق كثير من مفردات اللهجات الاجتماعية وبخاصة لهجات العمال والمجرمين . وكذلك الشأن فى لغة الانجليز : فقد أثبت الأستاذ بارتروج أن كثيراً من الاصطلاحات الحديثة فى اللغة الانجليزية التى يظن الانجليز أنها مأخوذة من اللغة الأمريكية العامية مشتقة من لغة المجرمين الانجليز(٢) .

ولا تتميز فى العادة اللهجات الاجتماعية بعضها عن بعض تميزاً واضحاً إلا فى المدن الكبيرة حيث يتكاثف السكان ، ويزدحم الناس ، وتنشط الحركة الاقتصادية ، وتتنوع الوظائف وتتعدد المهن ، ويشتد النزاع بين الطبقات : كنيويورك ولندن وباريس فى العصر الحاضر ، وكبغداد فى العصر العباسى .

وأهم أنواع اللهجات الاجتماعية ما يسمونه « باللهجات الحرفية » ، وهى اللهجات التى يتكلم بها فيما بينهم أهل الحرف المختلفة كالبرادين والنجارين

---

(١) شاعر فرنسى ولد بباريس سنة ١٤٣١ وتوفى سنة ١٤٨٩ وقد عاش فى وسط اللصوص والمجرمين ، واتهم أكثر من مرة بالسرقة والقتل . ومن أشهر مؤلفاته « العهد الصغير » و « العهد الكبير » Petit Testament; Grand Testament .

(٢) انظر عدد جريدة المصرى المشار إليه فى التعليق المدون فى ص ١٣٠ .

والنقاشين والصيادين والبحارة .. وهلم جرا . وتتميز اللهجات الحرفية بعضها من بعض تميزاً كبيراً فى المناطق التى يسود فيها « نظام الطوائف » Regime des Castes حيث تختص كل طبقة بحرفة أو وظيفة خاصة تكون وقفاً على أفرادها لا يجوز لهم ولا لأعقابهم من بعدهم الاشتغال بغيرها ، كما لا يجوز لغيرهم الاشتغال بها : كما هو الحال فى كثير من بلاد الهند .على حين أنه فى الأمم الحديثة التى قضى فيها على نظام الطوائف ، فأصبحت الحرف حظاً مشاعاً بين جميع أفراد السكان ، يزاول كل منهم المهنة التى تروقه ، وينتقل إذا شاء من مهنة إلى أخرى ، وأصبحت الطبقات الاجتماعية غير واضحة الحدود ولا موصدة الأبواب على غير أهلها ، فى هذه الأمم تتداخل اللهجات الحرفية بعضها فى بعض ، ويتأثر بعضها ببعض ، وتقل بينها الفروق ، وتضعف المميزات(١) .

* * *

هذا ، وقد خيل إلى بعض علماء « الاتنوجرافيا » أن اللهجات الاجتماعية لا تنشأ من تلقاء نفسها ، بل تخلق خلقاً ، وتبتدع بالتواضع والاتفاق بين أفراد الطبقة الواحدة ، وترتجل ألفاظها ومصطلحاتها ارتجالا ؛ وقد تابعهم فى هذا الرأى

---

(١) للهجات الاجتماعية مظاهر كثيرة فى مصر فى العصر الحاضر نفسه . ومن أوضح مظاهرها لغة الصيادين وأبناء البحار : فهى تختلف اختلافا كبيرا عن اللغة العادية فى كثير من مفرداتها وتراكيبها . ومن بين مفرداتها ما هو من أصل عربى وإن اختلف مدلوله أحيانا عن مدلوله فى الفصحى : ومن ذلك « ينصلح » بمعنى يهلك ؛ و « القرية » وهى خشبة الشراع الأكبر ؛ و « البومة » وهى الخشبة المربوط بها القلع ؛ و « الغليتى » وهو الجو الناعس الحنون ؛ و « المريس » وهو الريح من الجنوب » ؛ و « اللبش » وهو الريح من الجنوب الغربى ؛ و «الشلوق » وهو الريح من الجنوب الشرق ؛ و « القلفطة » وهى عملية رتق السفينة بالشحم وحبال الكتان ؛ و « الشاغول » و « العويل » و « الابليس » و « الفاية » وهى أسماء لحبال مختلفة يربط بها الشراع ؛ و « ضرب بلطة » أى حاد عن الجادة فانحرف نحو اليمين أو الشمال ليتجه مع الريح أو ليغير اتجاه لسفينة . ومن بين مفرداتها ما هو غير عربى الأصل : ومن ذلك « الأرطمون » (من أصل فرنسى ومعناها شراع صغير) ؛ و « البانكا » (من أصل إيطالى وهو مقعد المجدفين) ؛ و « الهلب » (من أصل انجليزى ومعناها المرساة) ؛ و « الشابورة » (من أصل ألمانى وهى خشبة فى مقدمة السفينة) ؛ و « المسكارج » (من أصل فارسى وهى حلقات الدفة) ؛ و « البروة » (من أصل أسبانى وهى صدر السفينة) . انظر فى ذلك مقالا تحت عنوان : « لغة الغموض والألغاز التى يتفاهم بها الصيادون » نشره فى عدد جريدة المصرى الصادرة فى ٢٥ /٥ /١٩٥٠ الأستاذ ابراهيم محمد الفحام . وكثير من الكلمات السابقة قد قمت أنا بتسجيله من لغة البحارة من أهل رشيد .

بعض القدامى من علماء اللغة . ولذلك لم تنل هذه اللهجات كبير حظ من عنايتهم .

وليس لهذه النظرية أى سند عقلى أو تاريخى . بل إن ما تقرره يتعارض مع النواميس العامة التى تسير عليها النظم الاجتماعية ؛ فعهدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالا ولا تخلق خلقاً ؛ بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها . هذا إلى أن معظم هذه اللهجات منتشر بين طبقات فقيرة جاهلة منحطة المدارك ضعيفة التفكير ، لا يتاح لمثلها أن تنشىء إنشاء لغة كاملة المفردات متميزة القواعد ، بل لا يتاح لها مجرد التفكير فى مثل هذا المشروع الخطير : طبقات المتسولين واللصوص والحدادين والصيادين ... وهلم جرا .

والحق أن « اللهجات الاجتماعية » لا تختلف فى نشأتها عن « اللهجات المحلية » التى تكلمنا عنها فى الفقرات الثلاث الأولى من هذا الفصل . فكلا النوعين ينشعب عن اللغة الأصلية ويستمد منها أصول مفرداته ووجهة أساليبه وتراكيبه وقواعده ؛ وكلاهما تلقائى النشأة ينبعث عن مقتضيات الحياة الاجتماعية وشئون البيئة . وكل ما بينهما من فرق أن السبب الرئيسى لنشأة « اللهجات المحلية » يرجع إلى اختلاف الأقاليم وما يحيط بكل إقليم من ظروف وما يمتاز به من خصائص ؛ على حين أن السبب الرئيسى فى نشأة « اللهجات الاجتماعية » يرجع إلى اختلاف طبقات الناس فى الأقليم الواحد وما يكتنف كل طبقة منها من شئون ويفصلها بعضها عن بعض من مميزات فى شتى مظاهر الحياة .

غير أننا قد نعثر أحياناً فى بعض اللهجات الاجتماعية على مفردات لا أصل لها مطلقاً فى لغة البلد ولا اللغات الأجنبية . ومفردات كهذه يغلب على الظن أنها قد اخترعت فى الأصل اختراعاً من بعض الأفراد وانتشرت عن طريق التقليد . ولكن هذه الظاهرة تكاد تكون مقصورة على لهجات الطبقات الراقية ، ولا تبدو إلا فى عدد قليل من الكلمات . أما معظم المفردات فترجع أصولها إلى كلمات منحدرة من لغة البلد أو مقتبسة من بعض لغات أجنبية . غير أن الغالب أن ينالها ، مع

تقادم الزمن ، كثير من التحريف والتغيير ، فتبعد بعداً كبيراً عن الأصل الذى أخذت منه . وقد تصل فى انحرافها هذا إلى درجة يخيل معها للباحث السطحى أنها ابتدعت بالتواضع والارتجال . ولعل هذا ما حدا ببعض العلماء على الظن بأن اللهجات الاجتماعية ناشئة عن تأليف واختراع[1] .

---

(١) يرجع الفضل فى دراسة اللهجات الاجتماعية إلى طائفة من علماء اللغة وعلماء الاجتماع . ومن أشهر من عنى بدراستها من علماء الاجتماع العلامة فان جينيب .

V. Van. Gennep; Essai d'une théorie des Langues Speciales (Revue des Etudes éthnogarphiques, juin-juillet 1908).

(٧)

اختلاف لهجة الرجال عن لهجة النساء

قد يحدث فى بعض الشعوب التى يقل فيها اختلاط الرجال بالنساء ، أو يعيش فيها كلا الجنسين بمعزل عن الجنس الآخر تحت تأثير نظم دينية أو تقاليد أجتماعية ، أن تختلف لهجة الرجال عن لهجة النساء اختلافاً يسيراً أو كبيراً .

وتكثر مظاهر هذا الاختلاف اللغوى كلما استحكمت حلقات الانفصال بين الجنسين ؛ حتى إنه لينشأ أحياناً من جراء ذلك لكل منهما لهجة تختلف إختلافاً بيناً عن لهجة الآخر ، أو تشتمل لهجة كل منهما على مفردات وجمل كثيرة لا تستخدم فى اللهجة الأخرى . وقد لوحظ ذلك فى بعض الشعوب البدائية على الأخص(١) .

ويخف هذا الاختلاف اللغوى كلما خفت قيود الاختلاط بين الجنسين ؛ فتقتصر مظاهره على بعض فروق يسيرة فى الأصوات والمفردات والجمل والأساليب ، كما هو مشاهد فى كثير من المناطق المصرية فى العصر الحاضر .

وليست هذه اللهجات فى الواقع إلا نوعاً من أنواع « اللهجات الاجتماعية » التى تقدم الكلام عنها فى الفقرة السابقة . فمعظم ما قلناه هناك فى نشأة اللهجات الاجتماعية وعواملها وتطورها .... وما إلى ذلك يصدق على هذا النوع .

---

(١) V. Durkheim; «La Prohibition de l'Inceste et ses origines» dans; «L'Année Sociolgique» T.I. P. 49.

(٨)
خلاصة هذا الفصل

هذا ، والنتائج التى تهدينا إليها دراستنا لهذا الموضوع هى النتائج نفسها التى انتهت إليها دراستنا لموضوعى الفصلين الأول والثانى :

١ ــ فقد ظهر لنا مما تقدم فى هذا الفصل أن الطريق التى يسير فيها تفرع اللغة الواحدة إلى عدة لهجات ، والخطط التى ينهجها ، والمراحل التى تقطعها كل لهجة من اللغات المتفرعة فى سبيل تطورها حتى تصبح لغة مستقلة ، والوجوه التى تختلف فيها هذه اللهجات بعضها عن بعض ، وما يتركه الأصل الأول فى كل منها من آثار تنطق بما بينها من صلات قرابة ولحمة نسب لغوى ، والحالات التى تشترك فيها اللغة الأصلية مع اللهجة المتفرعة فى أداء وظائف التعبير ، إذ تستخدم الأولى فى شئون الكتابة والآداب وتستأثر الثانية بشئون التخاطب العادى ، والحالات التى تستغنى فيها اللهجة المتفرعة استغناء تاماً عن اللهجة الأصلية ، فتستخدم فى الشئون الأدبية كما تستخدم فى شئون المحادثة ، وما يحدث بين « اللهجات المحلية » من صراع ، وما تتخذه كل لهجة منها فى أثناء ذلك من وسائل المقاومة وخطط الهجوم ، والمدة التى يستغرقها هذا الصراع ، والنتائج التى ينتهى إليها ، ومبلغ تأثر كلتا اللهجتين المتصارعتين بالأخرى ، والنواحى التى يبدو فيها هذا التأثر ، وما ينال عناصر كلتيهما من تغير وانحراف ، والخطوات التى تسير بها اللهجة الغالبة فى سبيل انتصارها واللهجة المغلوبة نحو انقراضها ، وموقف كل منهما حيال الأخرى فى حالة تكافؤ القوى ، والمكانة التى تحتلها اللهجة المتغلبة والشئون التى تستأثر بها إذ تصبح « لغة الدولة » أو « اللغة القومية » ، وما يعتورها من تطور واختلاف فى المناحى

تبعاً لاختلاف فنون القول ، ونشأة « اللهجات الاجتماعية » فى البلد الواحد ، ومبلغ انحراف هذه اللهجات بعضها عن بعض ، ومراحل التطور التى تسلكها كل لهجة منها ، والآثار المتبادلة بينها وبين لغة المحادثة العادية ، واختلاف لهجة الرجال والنساء .. ، ظهر لنا مما سبق أن كل أولئك وما إليه لا يجرى تبعاً للأهواء والمصادفات أو وفقاً لارادة الأفراد ؛ وإنما يخضع فى سيره لقوانين جبرية ثابتة ، مطردة النتائج ، محققة الآثار ، لا يستطيع أحد سبيلا إلى وقفها أو تغيير ما تؤدى إليه .

فليس فى قدرة الأفراد أن يحولوا دون انشعاب لغة ما إلى عدة لهجات متى توافرت شروط هذا الانشعاب ، ولا أن يتحكموا فى أية ناحية من نواحيه فيسيروا بها فى طريق غير الطريق التى تقررها قوانين هذه الناحية . فمهما أجهدوا أنفسهم فى هذا السبيل ، ومهما اتخذوا من وسائل ، فلن يغيروا شروى نقير مما تقضى به سنن التفرع اللغوى .

وإليك مثلا اللغة العربية : فعلى الرغم من الجهود الجبارة التى بذلت فى سبيل صيانتها . والاحتفاظ بوحدتها ، ومحاربة ما يطرأ عليها من لحن وخطأ وتحريف ؛ وعلى الرغم من الأسوار المنيعة التى أقامها لحمايتها العلماء والأدباء إذ أنشئوا علوم النحو والصرف والبيان والمعانى والبديع والاشتقاق والقراءات وأدب اللغة .. ووضعوا لمتنها مئات المعجمات ، فوصلوا بها فى تحديد الألفاظ والدلالة ، وضبط الأصوات والقواعد ، وتسجيل الآثار الأدبية ، إلى درجة منقطعة النظير ؛ وعلى الرغم من أن هذه الجهود كانت مؤيدة بالعقيدة ومرتكزة على دعامة من الدين ؛ على الرغم من هذا كله فإن اللغة العربية لم تلبث أن حطمت هذه الأغلال وتسلقت هذه الأسوار ، وأفلتت من جيمع هذه القيود ، وسارت فى السبيل التى أرادتها على السير فيها سنن التفرع اللغوى ، فانشعبت فى ميادين المحادثة إلى عدة لهجات ، وأخذت مسافة الخلف تتسع شيئاً فشيئاً بينها وبين هذه اللهجات حتى بعدت عنها بعداً كبيراً فى كثير من مظاهر الصوت والدلالة والقواعد والمفردات والأساليب ، بل أخذت مسافة الخلف تتسع شيئاً فشيئاً بين هذه اللهجات نفسها حتى أصبح بعضها غريباً عن بعض .

ومن هذا يستبين كذلك خطأ من يحاولون علاج تعدد اللغات بإنشاء لغة عالمية (إسبرنتو Esperanto) يتحدث بها الناس فى مختلف الأمم والعصور . وذلك أن هذه اللغة الصناعية ، على فرض إمكان اختراعها وإلزام الناس باستخدامها[1] ، لا تلبث بعد تداولها على الألسنة أن تخضع لجميع القوانين التى تخضع لها اللغات الطبيعية والتى خضعت لها أول لغة تكلم بها الانسان . فما دام أفراد الأمم الناطقة بها مختلفين فى أصولهم الشعبية ، وفى التكوين الطبيعى لجسومهم وأعضاء نطقهم ، وفى الظروف الجغرافية والاجتماعية المحيطة بهم ، وفى قواهم الادراكية والوجدانية ، وما دامت سنة الطبيعة تقتضى أن يختلف كل جيل عن الجيل السابق له فى جميع هذه الأمور ، فلابد أن تختلف هذه اللغة فى كلماتها وأصواتها ودلالاتها وقواعدها .. باختلاف العصور وباختلاف الشعوب الناطقة بها ، وتنقسم إلى لهجات تختلف كل واحدة منها عما عداها ، وتتفرع منها لغات عامية ، وتتسع الهوة بين لهجاتها قليلا قليلا حتى تنفصل كل لهجة منها عما عداها انفصالا تاما ، وتصبح غير مفهومة إلا لأهلها ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من اللغات . وهكذا لا يمضى زمن قصير أو طويل حتى يتولد من هذا العلاج المشكلة نفسها التى يحاولون القضاء عليها : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ... » ؛ « ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » .

٢ ـــ وقد ظهر مما تقدم فى هذا الفصل أن أهم الأسباب التى تؤدى إلى التفرع اللغوى وأهم العوامل التى تؤثر فى سيره ونتائجه ترجع إلى ظواهر اجتماعية خالصة . فالفتح ، والاستعمار ، والهجرة ، ونشاط حركة العمران فى البلاد ، وضعف السلطان المركزى الذى يسيطر على أجزاء الدولة الواحدة ، وانحلال الروابط السياسية التى كانت تجمعها ، واختلاف المناطق بعضها عن بعض فى النظم الاجتماعية والعرف والتقاليد والعادات ونواحى التفكير والواجدان والقوة والنفوذ ومظاهر الحضارة والآداب ، واختلاف الطبقات التى تسكن بلداً واحداً بعضها عن بعض فى

(١) هذه الأمنية ، وأن كانت ممكنة نظريا ، يحول دون تحقيقها عمليا صعوبات جمة .

المهنة والثقافة والتربية ومستوى المعيشة وحياة الأسرة وما يكتنف كل منطقة من مناطق الدولة وكل طبقة من طبقات سكانها فى حياتها من ظروف ، وانسجام بعض الطبقات مع المجتمع العام وقيام بعضها على أساس العزلة أو الخروج على نظمه وقوانينه ، ومبلغ اختلاط الرجال بالنساء فى شعب ما أو معيشة كلا الجنسين بمعزل عن الجنس الآخر ، والاحتكاك بين الناطقين بلهجات ترجع إلى أصل واحد .. وما إلى ذلك من الأمور التى تقدم أنها تؤدى إلى انشعاب اللغة الواحدة إلى « لهجات محلية » و « لهجات اجتماعية » وتؤثر فى طريقة هذا الانشعاب ومناهجه ، وفى صراع اللهجات بعضها مع بعض ، ونتائج هذا الصراع ، وفى تطور هذه اللهجات واختلافها بعضها عن بعض .. ظهر مما تقدم أن كل ذلك ترجع أهم أسبابه إلى ظواهر الاجتماع وشئون العمران .

٣ ـــ غير أنه قد ظهر لنا كذلك أن بعض الأسباب التى تؤدى إلى هذا التفرع وبعض العوامل التى تؤثر فى سيره ونتائجه ترجع إلى أمور غير اجتماعية . وذلك كالحواجز الجغرافية التى تفصل المناطق بعضها عن بعض ، وكالخواص الجسمية الوراثية التى يمتاز بها سكان كل منطقة فى الدولة الواحدة عن سكان المناطق الأخرى ، وخاصة ما يتصل منها بأعضاء النطق .

حقاً إن آثار هذه العوامل فى التفرع اللغوى ليست شيئاً مذكوراً بجانب آثار العوامل الاجتماعية ، كما ظهر ذلك من دراستنا السابقة . ولكن مهما يكن لهذه الآثار من أهمية نسبية ، فإن عليها تتوقف نواح كثيرة فى الانشعاب اللغوى وفى نتائجه .

وحقاً إن بعضها لا يؤثر إلا عن طريق الظواهر الاجتماعية . فالحواجز الجغرافية مثلا لا تؤثر فى التفرع اللغوى إلا عن طريق ما تحدثه بين سكان المناطق من فواصل وفروق فى شئون الاجتماع . ولكن لا يصح إغفال أثرها مهما كان هذا الأثر غير مباشر .

خاتمة

إن الفقرات التى ختمت بها فصول الكتاب الثلاثة[١] لتغنينا عن الاطناب فى هذه الخاتمة ، وتبين بحجة قاطعة صحة الحقائق التى قصدنا إلى إبرازها فى مؤلفنا هذا . فإذا ضممنا هذه الفقرات بعضها إلى بعض ، ولاحظنا أنها خلاصة لدراسة جميع النواحى المتصلة بحياة اللغة (لأن كل ما يعتور اللغة فى حياتها لا يعدو الأمور التى عرضنا لها فى هذه الفصول) ، ظهر لنا ، فى صورة لا يتطرق إليها الشك ، صدق الحقيقتين الآتيتين ، وهما اللتان رمينا إلى بيانهما فى هذه الرسالة :

١ ــ أن اللغة فى مختلف مظاهر حياتها ــ شأنها فى ذلك شأن النظم الاجتماعية الأخرى ــ ترتبط ارتباطاً وثيقاً بما عداها من ظاهرات العمران ، وأن أهم العوامل التى تؤثر فيها ترجع إلى هذه الظاهرات .

غير أنه قد تبين لنا كذلك أن اللغة قد تتأثر فى بعض نواحيها بظواهر غير اجتماعية كالأمور التى تتصل بالبيئة الجغرافية[٢] أو بواظائف الأعضاء[٣] أو باختلاف الشعوب فى خواصها الجسمية الوراثية[٤] أو بعدد السكان ومبلغ كثافتهم أو تخلخلهم[٥] أو ببنية اللغة نفسها ومتنها وقواعدها وطبيعة أصواتها وتفاعلها بعضها مع بعض وموضع الصوت فى الكلمة وما إلى ذلك[٦]

---

(١) انظر ص ٧٧ ــ ٧٩ ؛ ١٠٣ ــ ١٠٥ ؛ ١٣٧ ــ ١٤٠ .

(٢) انظر مثلا ص ٥٥ ، ٥٦ ، ١١٥ فقرة ٣ .

(٣) انظر مثلا ص ٤٩ ــ ٥٤ .

(٤) انظر مثلا ص ٥٦ ــ ٥٩ ، ١١٦ (فقرتى ٤ ، ٥) .

(٥) انظر مثلا ص ٨٢ ، ٩٣ ، ١١١ رقم ٣ .

(٦) انظر مثلا ص ٦١ ــ ٧٦ .

حقاً إن آثار هذه العوامل ليست شيئاً مذكوراً بجانب آثار العوامل الاجتماعية كما ظهر ذلك من دراستنا السابقة . ولكن مهما يكن لهذه الآثار من أهمية نسبية ؛ فإن عليها تتوقف نواح كثيرة فى حياة اللغة .

وحقاً إنه من الممكن — كما تبين ذلك من دراستنا السابقة — أن يرد بعض هذه العوامل إلى ظواهر الاجتماع . ولكن قسطاً غير يسير منها لا يمت بصلة ما إلى هذه الظواهر ؛ أو يمت إليها بصلات ضعيفة أو غير مباشرة ، أو يقتضى رده إليها إيغال فى التعسف وإمعان فى التشبث بأوهن الملابسات .

ومن ثم يتبين لنا فساد ما ذهب إليه بعض المتطرفين من علماء الاجتماع ، كالعلامة السويسرى دوسوسور De Saussure ومن نحا نحوه ، إذ يقررون أن جميع المؤثرات فى حياة اللغة ترجع إلى أمور اجتماعية(١) .

٢ — أن اللغة فى مختلف مظاهر حياتها — شأنها فى ذلك شأن النظم الاجتماعية الأخرى — لا تسير تبعاً للأهواء والمصادفات ولا وفقاً لإرادة الأفراد ؛ وإنما تخضع فى سيرها لقوانين مطردة ثابتة ، لا يد لأحد على وقف عملها أو تغيير ما تؤدى إليه .

ولا نقصد بذلك أن نقرر مبدأ الجبرية المطلقة فى حياة اللغة ، ولا أن ننكر إمكان التدخل فى شئونها . ولكننا نقصد بذلك أن نبين أن كل تدخل يتنافر مع

---

(١) جمع تلاميذ العلامة دسوسور بعد وفاته طائفة من بحوثه اللغوية القيمة فى كتاب سموه دروس فى علم اللغة Cours de Linguistique Générale (طبع بلوزان سنة ١٩١٦) . هذا ويفرق دسوسور فى كتابه هذا بين اللغة Langage والكلام Parole . ويعنى بالكلام تطبيق الفرد فى تفاهمه مع غيره للنظم اللغوية التى تواضع عليها مجتمعه . والكلام فى نظره عمل فردى فى جوهره ، ولذلك يخضع أحيانا لمؤثرات غير اجتماعية (المؤثرات الجسمية والنفسية ... وما إلى ذلك) . وأما اللغة فظاهرة اجتماعية تنشأ من طبيعة الاجتماع ويشرف عليها العقل الجمعى . ولذلك لا يكاد يكون لغير الظواهر الاجتماعية أثر ذو بال فى شئونها . (انظر كتاب دسوسور المذكور آنفا) .

وقد انبرى للرد على أصحاب هذا المذهب طائفة من الباحثين فى علم النفس اللغوى ، على رأسها أستاذى المرحوم دولاكروا Delacroix (انظر الفصل الثانى من مؤلفه : « اللغة والفكر Le Langage et la Pensée ») ، وطائفة من علماء اللغة على رأسها العلامة دوزا Dauzat (انظر ص١٨٢ — ١٩٥ من كتابه : « فلسفة اللغة ») .

القوانين الطبيعية التى تسير عليها اللغة فى حياتها لن يغير شيئاً مما تقضى به هذه القوانين ، وأن التدخل المنتج هو الذى يساير هذه القوانين ، ويهيىء الظروف المواتية لتحققها فى الناحية المقصودة . فما ذهب إليه « بيكون » Bacon بصدد التدخل فى الظواهر الطبيعية ، إذ يقرر أنه « لا تمكن السيطرة على الطبيعة إلا بطاعتها ومسايرتها » «To govern nature, you must first obey her» يصدق كذلك على ظواهر اللغة وما إليها من الظواهر الاجتماعية الأخرى .

ومن ثم وجب على كل من يحاول إصلاحاً لغوياً أن يعمد قبل كل شىء إلى دراسة حياة اللغة ، ومناهج تطورها ، وما تخضع له فى حياتها من قوانين ؛ حتى يتميز له الممكن من المستحيل ، ويستبين له ما يتفق مع السنن الكونية وما يتنافر مع طبيعة الأشياء ، وحتى تأتى إصلاحاته مسايرة لهذه الطبيعة ، فتؤتى أكلها وتكلل بالنجاح .

تعليق حضرة صاحب المعالي
عبد العزيز فهمي باشا
على هذا الكتاب وتعقيب المؤلف عليه

تفضل كثير من الباحثين فى مصر والبلاد العربية بالتنويه بهذا الكتاب والتعقيب على بحوثه عقب صدور الطبعة الأولى منه . وكان من أهم هذه التعليقات جميعاً وأعظمها نفعاً كلمة كريمة لأستاذنا الجليل حضرة صاحب المعالى عبد العزيز فهمى باشا حررها فى خطاب أرسله إلى المؤلف[1]، وعنى فيه بوجه خاص بالتعليق على ما ورد فى الكتاب بصدد الرسم العربى ووجوه إصلاحه ؛ وهو موضوع قد وجه إليه معاليه عناية كبيرة ، وقدم بشأنه إلى مجمع فؤاد الأول للغة العربية اقتراحاً مشهوراً بسطه فى كتابه القيم فى « الحروف اللاتينية للرسم العربى » .

ويسعدنا أن نثبت فيما يلى خطاب معاليه ؛ ثم نعقب عليه بتوضيح المشكلة التى عرض لها ، ومناقشة ما قدم لعلاجها من مقترحات ، ومن بينها اقتراح معاليه باستبدال حروف الرسم اللاتينى وأسلوبه بحروف الرسم العربى وطريقته ؛ ونختم البحث ببيان رأينا فى هذا الموضوع :

---

(١) وقد نشر هذا الخطاب فى عدد يوم الاثنين ٢٥ فبراير سنة ١٩٤٦ من مجلة « الرسالة » الغراء .

(١)

خطاب معاليه الى المؤلف

حضرة ......

تناولت كتابكم فى « اللغة والمجتمع » مسروراً شاكراً ، ثم قرأته بكل عناية واهتمام . وقد وجدتكم تناولتم فيه موضوع تطور اللغة وبحثتموه لا من « كل أطرافه » كما يقول الأدباء ، بل فليتموه وفحصتموه من « شوشته إلى قدمه » كما يقول أهل قريتنا . ولقد نهجتم فى عرضه طريقة البيان السهل الممتع الممتنع ، وزدتم التنوير والايضاح بما تزيدتم من التشقيقات والتفريعات ، وبما ضربتم الأمثال من ماضى اللغات وحاضرها وقاصى البيئات ودانيها ، وانتهيتم من استدلالاتكم القيمة إلى تقرير تلك الحقيقة الأبدية وهى : « أن اللغات وما يتفرع عنها من اللهجات كانت وما زالت ولن تزال فى تطور مستمر ، وأن هذا التطور قانون ثابت يجرى مجراه ويأخذ حكمه حتماً كلما توافرت دواعيه وعوامله ، وأن هذه الدواعى حاصلة لا محالة وإن أبطأ ظهورها حيناً طويلا أو قصيراً ، وأن هذا القانون — الذى حصَّلتُ بيانَكم إياه بالعبارة السابقة — هو قانون عام ما شذت ولا تشذ عنه أية لغة من لغات العالم قديمها وحديثها . فهو متمش على العربية كما تمشى من قبل على اللاتينية وغيرها ، وكما هو متمش وسيتمشى حتماً على الألمانية والفرنسية والانجليزية وغيرها .

كل هذا يا سيدى من جانبكم كلام صحيح معقول مقبول رضى الناس أو أبوا ؛ فإن القوانين الاجتماعية لا تعرف المحاباة ، ولا ترعى لبنى آدم حرمة ولا عاطفة ولا شعوراً ،بل هى كقوانين الطبيعة من نشوء وشباب وهرم وموت ، تسرى على الناس كافة بغير تفريق بين أجناسهم ولا دياناتهم ولا لغاتهم .

وأكرر أن هذا خلاصة رأيك ، وهو حق كل الحق ، وجميل كل الجمال . غير أننى لاحظت أنك ، وأنت فى معرض الكلام عل اللغات وتطورها ، قد

تعرضت — وبحق — إلى رسم اللغات . وهنا أشرت — فيما أشرت — إلى شكوى الناس قديماً وحديثاً من رسم الكتابة العربية . ولكن سعة علمك ، وجميل منطقك ، وسلامة ذوقك ، كل هذا أبى عليك إلا الاحتراس فى التقرير ، فقلت فى آخر صحيفة ٣٨[١] : « ولكن الرسم العربى ليس فى حاجة إلى كثير من الاصلاح ، فهو من أكثر أنواع الرسم سهولة ودقة وضبطاً فى القواعد ، ومطابقة للنطق » .

بقطع النظر عن سلامة القول بأن فى رسم العربية دقة وضبطاً فى القواعد ومطابقة للنطق ، أو عدم سلامته ، فمن رأيك أن هذا الرسم محتاج للاصلاح ، ولكن لا لكثير من الاصلاح . ما هو هذا الاصلاح الذى يستلزمه رسم العربية قلَّ أو كثر ؟ .

إن سيدى الأستاذ يعلم حق العلم أن الشكوى من رسم العربية ليست آتية من جهة أن أهلها يصعب عليها إخراج نغماتها الصوتية ، فإن كل الأطفال الذين يقرءون شيئاً من القرآن الكريم بكتاتيب القرى ، وكل أطفال المدارس الأولية يعرفون كيف ينطقون نغمات الثاء والجيم المعطشة والذال والظاء والقاف ، تلك النغمات الخمس التى ليست أصيلة ولا عامة عند أهل اللهجات العربية البعيدة عن الفصحى . أما سائر حروف الفصحى كالباء والتاء والحاء والخاء والدال والراء ... إلى آخر الأبجدية ، فنغماتها يعرف المصرى وغير المصرى من أهل البلاد العربية أن ينطق بها نطقاً لا شائبة فيه ، بلا فرق فى هذا بين متعلم وأمى . لكن هذه النغمات ليست هى اللغة العربية الفصحى المراد خدمتها ، وإلا لما تعذرت على أحد . بل الفصحى هى هذه النغمات موجهة فى الكلمة الواحدة توجيهات مختلفة يقوم بها فى اللغات الأجنبية حروف الحركات ولا يقوم بها عندنا إلا الشكل الذى أفلس . هذا هو موطن الصعوبة عندنا ومثار الشكوى . وما يهم فيما يتعلق بنا أن تكون كتابة اللغات الأجنبية فيها مساوىء أو لا يكون ، إنما الذى يهمنا هو رسم كتابتنا دون غيرنا ، فعندما نقول إن رسم العربية هو من أكثر أنواع الرسم « سهولة ودقة وضبطاً فى القواعد ومطابقة للنطق » ، اسمح لى أن أقول إن هذا لا يطابق الواقع إلا من

(١) جاء هذا النص فى السطرين الأخيرين من ص ٤٠ من هذه الطبعة .

جهة السهولة أى الأختزال المخل فقط . أما من جهة الدقة وضبط القواعد والمطابقة للنطق ، فإن هذا تجوز فى التعبير . إذ معنى الكلمة العربية لا يتأدى بمجرد نغمات الحروف ، بل بهذه النغمات محركة فى اتجاهات مختلفة . وهذا الغرض لا يؤديه الرسم العربى مطلقاً ، أو هو يؤديه ويؤدى كثيراً غيره فى آن ، مما يوجب التشوش والاضطراب . وهيهات أن يسعفنا هذا الرسم العاجز ، ولو أضيف إليه الاضطلاع المتين بقواعد اللغة من صرف ونحو وغيرها . وما تقوله فى صدر صحيفة ٣٩(١) مما حاصله أن لجمود الرسم فائدة تخليد ما خلفته قرائح أهل اللغة من الآثار ؛ فاسمح لى أن أقول إن هذا كلام جيد معقول ؛ ولكن على شرط واحد وهو أن تكون هذه المخلفات ممكناً لأى عارف بالقراءة والكتابة أن يقرأها على الوجه الذى أراده واضعها . وما أظن السيد يعارض فى هذا الشرط أو يرى سهولة تحققه ؛ خصوصاً مع تطور اللغة وعدم استقرارها على حال واحدة ؛ ذلك التطور الذى وضع كل كتابه لبيانه . وإذن بقينا مرتطمين بالصعوبة التى نحن فيها الآن .

لا أريد أن أقول إن حضرة الأستاذ الفاضل يستعمل فى عرض أفكاره القيمة التقية التى طالما استعملها الجاحظ وغيره من كبار السلف المحترمين ، بل كل ما أريد أن أقوله للسيد هو أنى أنست كثيراً بكتابه وفرحت بسعة علمه . وإنى أرجو الله أن يكثر من أمثاله وأن يوفقه فى عمله ويأخذ بيده فيه ؛ والسلام مع أوفى الشكر والاحترام(٢) .

عبد العزيز فهمى

---

(١) جاء هذا فى أول ص ٤١ من هذه الطبعة .

(٢) نشر هذا الخطاب الكريم فى عدد يوم الاثنين ٢٥ فبراير سنة ١٩٤٦ من مجلة الرسالة الغراء .

(٢)

تعقيب المؤلف على خطاب معاليه

يسعدنا أن نتقدم بجزيل الشكر لحضرة صاحب المعالى أستاذنا الجليل عبد العزيز فهمى باشا لما قدمه إلينا فى خطابه من توجيهات سديدة قيمة وما خص به كتابنا من ثناء وتقدير كريمين .

أما الموضوع الذى عرض له وهو موضوع الرسم العربى ووجوه إصلاحه فيسرنا بهذه المناسبة الطيبة التى أتاحها لنا خطاب معاليه أن ننقل هنا ماكتبناه بشأنه فى الطبعة الثالثة لكتابنا « فقه اللغة »(١) ؛ آملين أن يكون فيه توضيح كاف لمختلف نواحى هذه المشكلة وما قدم فى صدد علاجها من مقترحات كان من أهمها وأشدها دوياً اقتراح معاليه باستبدال حروف الرسم اللاتينى وأسلوبه بحروف الرسم العربى وطريقته :

أولا ــ عيوب الرسم العربى

ترجع أهم عيوب الرسم العربى إلى أمور ثلاثة :

أحدها : أن الكلمات تدون غالباً بحسب هذا الرسم فى الكتابة والطبع عارية عن حركات حروفها ؛ أى مجردة من الاشارة إلى أصوات المد القصيرة (الفتحة والكسرة والضمة) التى تلحق الأصوات المقطعية فى الكلمة . وهذا النقص مشترك بين معظم أنواع الرسم السامى . ويرجع سببه إلى أمور تتعلق بأصول الكلمات فى اللغات السامية . وذلك أن للأصوات المقطعية (ونعنى بها ما عدا أصوات المد) فى

(١) صفحات ١٧٨ ــ ١٩١ من الطبعة الثالثة وهى صفحات ٢٥٣ ــ ٢٦٦ من الطبعة السادسة والمتداولة الآن لهذا الكتاب .

اللغات السامية أهمية تزيد كثيراً على أهمية أصوات المد . فالمعنى الأساسى للكلمة يشار إليه فى هذه اللغات بالأصوات المقطعية ؛ أما أصوات المد فلا تعدو وظيفتها تحديد هذا المعنى الأساسى وتوجيهه وجهات خاصة . فالمعنى العام للعلم مثلا تدل عليه فى اللغة العربية ثلاثة أحرف مقطعية وهى العين واللام والميم ؛ أما أصوات المد الطويلة (الألف والياء والواو) والقصيرة (الفتحة والكسرة والضمة) التى تلحق جميع هذه الأصوات المقطعية أو تلحق بعضها ، فلا تعدو وظيفتها تحديد المعنى العام للعلم ببيان نوعه أو زمنه أو ناحية اشتقاقه أو علاقته بما عداه من عناصر الجملة ... وما إلى ذلك . هذا إلى أن الأصوات المقطعية تنال فى اللغات السامية أكبر قسط من عناية المتكلم والسامع ؛ وهى لذلك أوضح فى الجرس من أصوات المد وأظهر منها فى السمع . ولذلك وجه الرسم السامى معظم عنايته إلى إظهار هذا النوع من الأصوات . فالأشكال القديمة للرسم السامى كانت تقتصر على هذه الأصوات وتغفل الاشارة إلى جميع أصوات المد سواء فى ذلك الطويل منها والقصير . والرسم العربى الحديث يشير إلى أصوات المد الطويلة بحروف الألف والياء والواو ، ولكنه يغفل الرمز إلى أصوات المد القصيرة ، أو يشير إليها بحركات فوق الحروف أو تحتها . ولا تكاد تدون هذه الحركات فى العصر الحاضر إلا فى الكتب الأولية التى تستخدم فى تعليم النشء مبادىءالقراءة والكتابة . أما فيما عدا ذلك فقد جرت العادة أن تدون الكلمات فى الكتابة والطبع عارية عن الشكل .

ومهما يكن من شىء بصدد الأسباب التى أدت إلى هذا العيب ، فقد ترتب عليه فى الوقت الحاضر أضرار كثيرة أهمها ما يلى :

١ ـــ أنه لا يستطيع أحد أن يقرأ نصاً عربياً قراءة صحيحة ويشكل جميع حروفه شكلا صحيحاً إلا إذا كان ملماً بقواعد اللغة العربية وأوزان مفرداتها إلماماً تاماً ، وكان فاهماً ، من قبل ، مايقرؤه . ففى معظم اللغات الأوروبية ، كما يقول قاسم أمين ، يقرأ الناس قراءة صحيحة ما تقع عليه أبصارهم ، وتتخذ القراءة وسيلة للفهم ، أما نحن فلا نستطيع أن نقرأ قراءة صحيحة إلا إذا فهمنا أولا ما نريد قراءته .

٢ ــ أن النص العربى الواحد عرضة لأن يقرأ قراءات متعددة بعيدة عن اللغة الفصحى . وذلك لأنه قد حدث تناوب واسع النطاق فى أصوات المد القصيرة فى اللهجات العامية ، حتى أننا لا نكاد نجد كلمة باقية فى هذه اللهجات على وزنها الصحيح . فالنص العربى المجرد من الشكل عرضة لأن يقرأه أهل كل لهجة حسب منهجهم فى وزن الكلمات .

٣ ــ أنه من المتعذر فى هذا الرسم قراءة أسماء الأعلام (أسماء الأمكنة والبلاد والجبال والبحار والأناسى .. الخ) قراءة صحيحة إلا إذا كان القارىء يحفظ الكلمة وضبطها من قبل . ولذلك تضطر بعض المعجمات إلى تهجى حروف الكلمات التى من هذا القبيل والنص على حركة كل حرف منها ؛ فيقول مثلا « صفين » بكسر الصاد المهملة وتشديد الفاء الموحدة بالكسرة .

٤ ــ أن رسماً كهذا من شأنه أن يشيع اللحن ، ويعمل على انحلال العربية الفصحى ، ويحول دون تثبيت ملكتها فى النفوس ، ويحمل على الاستهانة بقواعدها ، ويصرف كثيراً من خاصة الناس أنفسهم عن الإلمام بضوابطها النحوية والصرفية ؛ لأن فى استطاعتهم ، بفضل هذا الرسم المعيب ، أن يكتبوا ويؤلفوا ، بدون أن يكونوا ملمين بأصول هذه اللغة ، ولا مستطيعين هم أنفسهم قراءة ما يكتبونه قراءة صحيحة ، وبدون أن يظهر فى كتاباتهم أى أثر لقصورهم هذا .

وثانيها : أن للحرف الواحد بحسب هذا الرسم صوراً مختلفة : فله صورة إذا كان مفرداً ، وأخرى إذا كان متصلا بغيره ؛ وله صورة إذا كان فى أول الكلمة ، وأخرى إذا كان فى وسطها ، وثالثة إذا كان فى آخرها .

وقد ترتب على ذلك أضرار كثيرة من أهمها ما يلى :

١ ــ أن تعدد هذه الصور من شأنه أن يحدث الارتباك والحيرة عند المبتدئين من المتعلمين ويطيل زمن تعلمهم للكتابة .

٢ ــ أنه يكلف المطابع نفقات باهظة فى الحصول على عدة نماذج لكل

حرف من حروف الهجاء .

٣ ـــ أنه يخلق صعوبات فى الطبع ، ويرهق العمال القائمين على صف الحروف من أمرهم عسرا ، إذ يتردد الواحد منهم بين أكثر من ثلثمائة صندوق مختلفة فى صور ما تشتمل عليه من نماذج ، فضلا عن صناديق الشكل وعلامات الترقيم ؛ بينما لا يتردد العامل القائم على صف الحروف الافرنجية إلا على نحو مائة صندوق .

٤ ـــ أن كثرة الصناديق وتعدد الصور للحرف الواحد ، كل ذلك يجعل عمل هؤلاء العمال عرضة للزلل . ومن أجل هذا تكثر الأخطاء المطبعية فى الكتب العربية ؛ بينما تندر جداً فى الكتب الافرنجية . مع أن جامعى الكتب الأولى ومصلحى تجاربها يبذلون من الجهد فى الجمع والاصلاح أضعاف ما يبذله زملاؤهم فى الكتب الأخرى .

وثالثها : أن رموز هذا الرسم تنقسم إلى طوائف تشتمل كل طائفة منها على حروف متحدة فى صورتها ، ولا يمتاز بعضها عن بعض إلا بالإعجام والاهمال أو بعدد النقط (ب ت ث ن ى ، ج ح خ ، د ذ ، ر ز ... الخ) .

وقد ترتب على ذلك أضرار كثيرة من أهمها ما يلى :

١ ـــ أن رسم الكلمة العربية يقتضى الكاتب بعد الفراغ من كتابتها أو فى أثنائها أن يضع ما يجب وضعه من نقط فوق معظم حروفها أو تحتها . وفى هذا إسراف فى المجهود وإكثار فى العمليات التى يقوم بها القلم وفى نوعها .

٢ ـــ أن القلم كثيراً ما يزل فى تدوين هذه النقط ، فيغفل بعضها ، أو ينقص من عددها أو يزيده ، أو ينحرف بها عن مواضعها وخاصة فى الرسم السريع ؛ فتصبح الكلمة عرضة لأن تقرأ على وجوه متعددة ، ويقع القارىء فى الحيرة ، أو يضطر فى تمييز هذه الحروف المتشابهة بعضها من بعض إلى الاعتماد على فراسته وفهمه لسياق الكلام .

٣ ـــ أن كثرة الحروف المنقوطة وخروج النقط عن هيكل الكلمة ، كل

ذلك يجهد القارىء ويوقع نظره فى الارتباك . فيقرأ الكلمة أحياناً على غير وجهها حتى مع صحة كتابتها ورسم نقطها فى مواضعها . ولاتقاء ذلك تضطر بعض الكتب والمعجمات إلى النص على نوع الحروف التى يخشى فيها اللبس ، فتقول مثلا « جمل » بالجيم المعجمة التحتية ، و « حمل » بالحاء المهملة ، و « بيت » بالباء الموحدة التحتية فالياء المثناة التحيتة فالتاء المثناة الفوقية .

* * *

ولا يكاد يخلو من مثل هذه العيوب ، بل مما هو أشد منها ، أى نوع من أنواع الرسم . فاللبس الذى يحدثه أحياناً الرسم العربى ليس شيئاً مذكوراً بجانب اللبس الذى يحدثه الرسم الانجليزى مثلا ، وخاصة فى النطق بأصوات المد : Vowels a, e, i, o, u. ie io ei, oi. ea, ee...ect. فكثيراً ما يختلف النطق بالصوت الواحد من هذا النوع وغيره تبعاً لاختلاف الكلمات التى يرد فيها . حتى إنه لايستطيع أحد قراءة معظم الكلمات الانجليزية قراءة صحيحة بمجرد النظر إلى حروفها ، بل لابد فى ذلك أن يكون القارىء قد عرف نطق الكلمة من قبل عن طريق سماعها من إنجليزى ؛ كما أنه لايستطيع أحد كتابتها كتابة صحيحة بمجرد سماعها بل لابد فى ذلك أن يكون قد حفظ حروفها من قبل عن ظهر قلب . وإذا كان الأوروبيون يقرءون قراءة صحيحة ، فليس سبب ذلك راجعاً إلى أن رسمهم يعبر تعبيراً دقيقاً عن أصوات الكلمة ، وإنما هو راجع إلى أن لغة كتابتهم لا تكاد تختلف عن لغة حديثهم ، فيكفى أن يرمز للكلمة على أية صورة لينطق بها الواحد منهم على وجهها الصحيح .

* * *

ولكن وجود هذه العيوب أو ما يشابهها فى الرسم الأوربى أو غيره لا يبرر إغفال علاجها فى الرسم العربى ، وخاصة لأن اتفاق لغة الحديث مع لغة الكتابة عند الأوربيين يخفف كثيراً من آثار هذه العيوب فى رسمهم ، على حين أنها تنطوى على أضرار بليغة فى الرسم العربى فى العصر الحاضر الذى انحرفت فيه اللهجات العامية أو لهجات الحديث انحرافا كبيراً عن اللغة الفصحى التى نستخدمها فى الكتابة .

ثانياً — ما اقترحه الباحثون من قبل لاصلاح الرسم العربى

هذا ، وقد قدمت عدة اقتراحات لسد مواطن النقص السابق ذكرها . وترجع هذه الاقتراحات إلى قسمين رئيسيين : يكتفى أصحاب القسم الأول منها بإصلاحات شكلية لا تمس جوهر اللغة ولا صورة الرسم الحاضر ؛ ويرمى أصحاب القسم الآخر إلى إدخال تغيير جوهرى فى اللغة نفسها أو فى صورة رسمها .

* * *

أما اقتراحات القسم الأول فمن أهمها ما يلى :

١ — أن يلتزم شكل الكلمة التى من شأنها أن تثير اللبس عند أوساط المتعلمين إذا تركت من غير شكل . أما الكلمات التى يدل السياق على شكلها ، أو يكفى إلمام بمبادىء القواعد العربية للنطق بها على وجهها الصحيح ، أو لا يمكن أن ينطق بها فى صورة أخرى ، فمن العبث الالتجاء فيها إلى الشكل .

وغنى عن البيان أن هذا الاقتراح لا يقضى إلا على قليل من عيوب الرسم العربى ، ولا يقى إلا من بعض الأضرار التى أشرنا إليها آنفاً ، ولا تكاد تظهر ثمرته إلا لدى الملمين بقواعد اللغة العربية وأوزان مفرداتها .

٢ — أن يلتزم شكل جميع الحروف فى المطبوع والمكتوب . فتوضع فوق كل حرف أو تحته الحركة التى تدل على صوت المد القصير الذى يلحقه ؛ كما يتبع ذلك فى تعليم النشء مبادىء القراءة والكتابة .

وهذا الاقتراح لا يعالج إلا ناحية واحدة من نواحى المشكلة ، وهى الناحية المتعلقة بالرمز إلى أصوات المد القصيرة ، ويغفل ما عداها إغفالا تاماً . هذا إلى أنه يعالج هذه الناحية فى صورة تنطوى على كثير من الاسراف فى نفقات المطابع والورق وجهود القائمين على شئون الطبع ، وترهق الكاتب والقارىء من أمرهما عسرا .

وفضلا عن هذا كله فإن رسم الشكل فوق الحرف أو تحته مع اتصال الحروف بعضها ببعض وضيق الحيز الذى يشغله كل حرف منها ، يجعل هذا الشكل عرضة للانحراف ، فيحدث الارتباك ، ويوقع فى الخطأ والحيرة . على أن التجارب قد دلت على أن القلم كثيراً ما يزل فى تدوين هذه العلامات الخارجة عن هيكل الكلمة وأن النظر كثيراً ما يتخطاها عند القراءة ؛ فلا تكاد تؤدى الغرض المقصود منها .

٣ — واقترح بعضهم إدخال الشكل فى بنية الكلمة حتى لا يتخطاه نظر القارىء . وذلك بأن تخترع حروف للرمز إلى أصوات المد القصيرة (التى يرمز إليها الآن بالفتحة والكسرة والضمة) وتدون هذه الحروف فى صلب الكلمة فى مواضعها . فلتدوين كلمة (كتب) مثلا يرسم بعد كل من الكاف والتاء والباء الحرف الذى سيخترع للاشارة إلى ما تشير إليه الفتحة فى رسمنا الحاضر . وهذا هو المنهج الذى يسير عليه الرسم الأوربى Kataba . وينتصر لهذا الاقتراح عدد كبير من الباحثين وعلى رأسهم أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد باشا(١) .

وهذه الطريقة لا تعالج كذلك إلا ناحية واحدة من نواحى المشكلة وهى الناحية المتعلقة بالرمز إلى أصوات المد القصيرة ، وتغفل ما عداها إغفالا تاماً . هذا إلى أنها تخلق لنا رسماً يختلف فى كثير من الوجوه عن رسمنا الحالى . فتقطع بذلك الصلة بين ماضينا وحاضرنا . ومن ثم توجه إليها معظم المآخذ التى سنوجهها إلى المقترحات التالية .

* * *

وأما اقتراحات القسم الآخر ، وهى التى ترمى إلى إدخال تغيير جوهرى فى اللغة نفسها أو فى صورة رسمها ، فترجع إلى ما يلى :

---

(١) نشر هذا الرأى فى مجلة الموسوعات سنة ١٨٩٨ ، ثم عاد فأشار إليه فى مجلة الشئون الاجتماعية بعدد فبراير سنة ١٩٤١ . غير أنه عقب عليه فى صفحة ١٢ من هذه المجلة الأخيرة بما نصه : « ولست متمسكا بالطريقة التى اقترحتها منذ زمان بعيد . ولكنى راض بأية طريقة تؤدى إلى الغاية التى ننشدها من توحيد لغة الكتابة ولغة الكلام فى الجملة ليسهل تعليمها من ناحية وليوجد حد مشترك من اللغة بين المتعلمين وغير المتعلمين » . غير أنه يظهر لنا أن هذه الغاية التى يبغيها معالى أستاذنا لا يكاد يتحقق شىء منها بما تضمنه اقتراحه من إدخال الشكل فى رسم الكلمة ؛ وذلك أن الفائدة التى يحققها هذا الاصلاح لا تكاد تعدو تسهيل القراءة والكتابة واتقاء الخطأ فى ضبط الكلمة حسب وزنها فى اللغة الفصحى .

١ ــ أن تستبدل بالحروف اللاتينية ومناهج الرسم اللاتينى (التى ترمز إلى أصوات المد القصيرة بحروف تدون فى صلب الكلمة) بالحروف العربية ومناهج الرسم العربى . وعلى رأس القائلين بهذا الاقتراح فى الوقت الحاضر معالى الأستاذ العلامة عبد العزيز فهمى باشا . وقد نشر بشأنه منذ عهد قريب كتاباً قيماً عنوانه : « الحروف اللاتينية للرسم العربى » .

ولا شك أن تطبيق هذا الاقتراح ــ بعد تنقيح فى بعض التفاصيل التى ذهب إليها القائلون به ــ كفيل بالقضاء على جميع عيوب الرسم العربى واتقاء أضرارها السابق ذكرها .

غير أنه يزيد حروف الكلمة إلى ضعفى ما هى عليه الآن ، وينطوى على ضرر آخر بليغ . وذلك أن من شأنه أن يحول ، عاجلا أو آجلا ، بين الأجيال القادمة والانتفاع بالتراث العربى المدون برسمنا الحاضر . حقاً إنه يمكن اتقاء ذلك بالالتجاء إلى إحدى محاولتين ؛ ولكن كلتيهما توقع فى صعوبة تزيد كثيراً على الصعوبة التى نعمل على إزالتها . أما إحداهما فأن يتعلم كل فرد نوعين من الرسم العربى : الرسم القديم الذى يتيح له الانتفاع بنتاج الفكر العربى من النشأة إلى العصر الحاضر ؛ والرسم الحديث الذى يقرأ به ما يدون بعد هذا الاصلاح ويستخدمه فى كتابته . ولا يخفى ما يترتب على ذلك من الارتباك ، وإطالة الزمن الذى تعلم فيه القراءة والكتابة ، وانفرادنا من بين سائر الأمم بأعجوبة فى ميادين الرسم والتعليم . وأما الأخرى فإن يعمد إلى جميع ما كتب أو طبع بالرسم العربى فى مختلف أنحاء العالم فيعاد تدوينه أو طبعه وفق هذا الرسم الحديث . ولا يخفى أن مشروعاً هذا شأنه تنوء به الجهود الانسانية وتعجز الخزائن عن تمويله .

٢ ــ واقترح آخرون أن يكون لكل حرف من حروف الهجاء العربى أربع صور مختلفة : صورة فى حالة تحركه بالفتح ؛ وأخرى فى حالة تحركه بالكسر ؛ وثالثة فى حالة تحركه بالضم ؛ ورابعة فى حالة تسكينه . وهذا فى مجمله هو المنهج الذى يسير عليه الرسم الحبشى .

وتفضل هذه الطريقة الطريقة السابقة بأنها تحقق الغرض المنشود مع إبقاء عدد

حروف الكلمة على ما هى عليه ، فتوفر بذلك قسطاً كبيراً من الوقت والمجهود والنفقات المادية فى الورق وأجور العمال ... وما إلى ذلك من الأمور التى تقتضيها الطريقة السابقة . فكلمة « كتب » مثلا ترسم ثلاثة أحرف حسب هذه الطريقة ؛ على حين أنها ترسم ستة حسب الطريقة السابقة .

ولكنها تشتمل على الضرر البليغ نفسه الذى أشرنا إليه فى نقدنا للاقتراح السابق ، وهو قطع الصلة بين الماضى والحاضر ، وتعويق الأجيال القادمة عن الانتفاع بالتراث العربى المدون بالرسم الحالى . هذا إلى أن عدد حروف الهجاء يصبح بحسب هذه الطريقة أربعة أضعاف عددها الحاضر : ولا يخفى أن ذلك يكلف المطابع نفقات باهظة ، ويرهق العمال القائمين على صف الحروف ، ويجعل عملهم عرضة للزلل ، ويشيع الأخطاء المطبعية ، ويحدث الارتباك والحيرة عند المبتدئين من المتعلمين ، ويطيل تعلمهم للهجاء .

٣ — واقترح بعضهم إلغاء الاعراب وإلزام السكون أواخر الكلمات ، حتى تضيق مسافة الخلف بين رسم الكلمة ونطقها فى اللهجات العامية المستخدمة فى المحادثة ، فتسهل على الناس القراءة ، ويتخلص الرسم من بعض عيوبه . وقد كفانا أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد باشا مئونة الرد على هذا الاقتراح بما عقب به عليه فى مجلة الشئون الاجتماعية إذ يقول : « وهذا الرأى مطعون فيه من وجهين . أما الأول فإنه لا يحل من المسألة إلا بعضها دون البعض الآخر ، لأن ضبط حركات الحروف ليس ضروريا فى الاعراب فحسب ، بل هو أشد ضرورة فى بنية الكلمة . وهذا الضبط من جوهر اللغة ؛ فإذا أهملنا الشكل ولم نأت بطريقة تقوم مقامه ظل الناس يلفظون الكلمات على غير وجهها الصحيح كما هم الآن يفعلون . وأما الوجه الثانى فإن فى هذا الرأى إهدارا لصورة اللغة العربية وقضاء على أهم مميزاتها ؛ وذلك ما لا نظن أحداً يرضاه متى أمكن تسهيل اللغة وشيوعها من غير الالتجاء إلى العبث بسلامتها ومميزاتها[١] .

---

(١) مجلة الشئون الاجتماعية عدد فبراير سنة ١٩٤١ . هذا وكنا نود لو اقتصر أستاذنا الجليل على ما تقدم ، ولم يعقب عليه بما قد يفهم منه بعض الناس أن مثل هذه الاعتبارات لا ينبغى أن تحول دون تحقيق التيسير الذى يتضمنه هذا الاقتراح .

ثالثاً — رأيى فى إصلاح الرسم العربى

هذا ، وقد دعانى نقص الاقتراحات السابقة وعدم كفايتها إلى التفكير فى طريقة تخلص الرسم العربى من عيوبه الثلاثة جميعاً ، بدون أن تضطر القلم والنظر إلى الصعود والهبوط نحو حركات ترسم فوق الحروف أو تحتها ، وتقى القارىء والكاتب شرور الانحرافات المترتبة على هذا الصعود والهبوط ، وبدون أن تقطع الصلة بين ماضينا وحاضرنا ، بل تتيح للأجيال القادمة الانتفاع بتراثنا المدون بالرسم الحالى . فاهتديت إلى طريقة يمكن تلخيص أصولها فى المبادىء الأربعة الآتية[١] :

المبدأ الأول : أن ترسم حروف الكلمة مفرقة منفصلة بعضها عن بعض وبذلك يكون لكل حرف صورة واحدة لا تتغير ؛ ويتخلص الرسم من أحد عيوبه الثلاثة السابق ذكرها[٢] .

المبدأ الثانى : أن تكتب الحروف المتحدة الصورة (ب ت ث ... الخ) بصور مختلفة ، يؤخذ بعضها من صورة الحرف منفرداً وبعضها من صورته متصلا بغيره ، أو يؤخذ بعضها من صورته فى خط الرقعة وبعضها من صورته فى خط النسخ أو الثلث . وبذلك يتميز الحرف عن غيره بصورته لا بإعجامه أو إهماله أو عدد نقطه كما هو الحال الآن ؛ ويتخلص الرسم العربى من عيب آخر من عيوبه الثلاثة التى أشرنا إليها فيما سبق[٣] ، بدون حاجة إلى اختراع أشكال جديدة

---

(١) قدمت هذه الطريقة إلى مجمع فؤاد الأول للغة العربية فى شهر أكتوبر سنة ١٩٤٤ ، ونشرتها بمجلة الرسالة الصادرة فى ٦—١٢—٤٤ . ثم أدخلت عليها بعض تعديلات وزيادات ، ونشرتها بصورتها الجديدة فى مجلة الشرق الجديد فى أعدادها الثلاثة الأولى الصادرة فى أبريل ومايو ويونية سنة ٤٥ . ثم خطر لى فيما بعد تعديلات وزيادات يسيرة أخرى . وقدمت الطريقة فى آخر صورة لها (وهى الصورة التى أثبتها فى هذا الكتاب) إلى المجمع فى ٢٧—١—٤٦ .

(٢) هو العيب الثانى الذى تكلمنا عليه فى آخر ص ١٥٢ وأول ١٥٣ .

(٣) هو العيب الثالث الذى أشرنا إليه فى السطر الحادى عشر وتوابعه من ص ١٥٣ .

للحروف تبعد بها عن أشكالها الحالية وتقطع الصلة بين قديمنا وحديثنا . ويمكن فى هذه الحالة أن يستغنى عن النقط ، لأن صورة الحرف ستكون كافية فى تمييزه . ولكننى مع ذلك أفضل الاحتفاظ بالنقط أو بما يحل محلها فى خط الرقعة توثيقاً للصلة بين الرسمين القديم والحديث .

المبدأ الثالث : أن يرسم عقب كل حرف ، لا فوقه أو تحته ، ما يرمز إلى سكونه(١) أو حركته أو تنوينه أو تشديده(٢) ، ما عدا الحرف المتحرك بالفتحة فلا يرمز إلى حركته لكثرة دوران الفتحة فى الكلمات العربية ، ويكون رسم الحرف غير متبوع بأية حركة علامة على أنه مفتوح ؛ وما عد الحرف الممدود فيرسم غير متبوع بما يدل على حركته ، لأن حرف المد المدون بعده يدل على هذه الحركة : فالألف اللينة تدل على فتح ما قبلها ، وياء المد تدل على كسره ، وواو المد تدل على ضمه .

ويستخدم فى الرمز إلى الكسرة والضمة والسكون والتنوين والتشديد بدون التنوين أو مع التنوين العلامات نفسها التى يستخدمها الرسم الحالى ، مع تمييز الفتحتين عن الكسرتين بنبرة يسيرة تتصل بإحداهما .

وبذلك يتخلص الرسم العربى من ثالث عيوبه وأهمها ، وهو عدم الرمز إلى حركات الحروف ، بدون أن يكون فى طريقته الجديدة خروج على أوضاعه المتعارفة .

المبدأ الرابع : ترسم علامات الترقيم وفق صورها المتعارفة الآن ،؛.:؟! «» () ما عدا الشرطتين اللتين تحصران بينهما الجملة المعترضة فيستبدل بهما القوسان () حتى لا تلتبسا بالكسرة إن رسمتا بصورتهما العادية .

وتمتاز هذه الطريقة عن جميع الطرق المقترحة من قبل بالأمور الآتية :

١ ــ أنها تخلص الرسم العربى تخليصاً تاماً من عيوبه الثلاثة الرئيسية التى أشرنا إليها فيما سبق وتخلصه من جميع آثارها الضارة ، وتحقق جميع الفوائد المقابلة لها

(١) نقصد بالحرف الساكن ما يكون ساكنا بطبعه ، لأن الحرف المتحرك إذا سكن فى النطق لعارض كالوقف عليه مثلا فى آخر الكلمة يكون حكمه حكم الحرف المتحرك .

(٢) نقصد بالحرف المشدد ما يكون مشددا بطبعه أو مشددا فى النطق لوقوعه بعد لام شمسية .

٢ ــ أنها تعفى القلم والنظر من الصعود والهبوط نحو حركات ترسم فوق الحروف أو تحتها ، وتقى القارىء والكاتب شرور الانحراف المترتب على هذه الحركات وأوضاعها . وذلك أن طريقتنا ترسم الحركات فى صلب الكلمة نفسها .

٣ ــ أنها لا تقطع الصلة بين ماضينا وحاضرنا ، ولا تحول بين الأجيال القادمة والانتفاع بالتراث العربى المدون بالرسم القديم ، لأنها تستخدم الصور والأشكال نفسها التي يستخدمها هذا الرسم فيما عدا الفتحتين اللتين تلصق بأولهما نبرة يسيرة تمييزاً لهما عن الكسرتين . فالعالم بهذه الطريقة يستطيع مع شىء يسير جداً من التأمل والمران أن يقرأ الكتب المدونة بالرسم الحالى .

* * *

ولا يؤخذ على هذه الطريقة إلا أمران :

أحدهما : أنها تطيل رسم الكلمة قليلا بالنسبة إلى رسمها القديم . ولكن ضرر هذه الاطالة ليس شيئاً مذكوراً بجانب ما تحققه من جليل الفوائد للعربية وأهلها . على أن معظم عيوب الرسم القديم قد نشأ عن مبالغته فى الاختزال والتعمية وإغفال الرمز إلى كثير من الأصوات التى ينطق بها فى الكلمة . فلا يرجى له إصلاح جدى إلا بالقضاء على اختزاله وتعميته واعتماده على فراسة القارىء . وهذا يستلزم حتماً أن يطول رسم الكلمة حتى تكون رموزها معبرة تمام التعبير عن جميع أصواتها . هذا إلى أننا لم نأل جهداً فى تحقيق أقصى ما يمكن تحقيقه من الاقتصاد فى مجهود القارىء والكاتب والطابع[1] مع عدم الاخلال بالغرض المقصود ، وذلك بما تضمنته طريقتنا من الأصول المشار إليها فى مبدئها الثالث .

(١) تبلغ صناديق المطبعة بحسب الطريقة القديمة ٣٦٦ قسما للحروف البسيطة غير المشكلة ؛ وأكثر من ضعف ذلك للحروف المشكلة (قاعدة شامية) ؛ بينما تبلغ بحسب طريقتنا ٥٤ فقط للحروف والشكل والترقيم معا (٣٤ للحروف و ١٢ للشكل و ٨ لعلامات الترقيم) . فالصناديق فى طريقتنا تقل أقسامها حتى عن صناديق المطابع الافرنجية نفسها التى تبلغ أقسامها ١٠٩ .

والآخر : أنها ترسم حروف الكلمة متفرقة . ولكن رسم الحروف متفرقة أسلوب سليم لا غبار عليه ولا غرابة فيه . فقد سار عليه معظم أنواع الرسم السامى (الفينيقى والعبرى والآرامى والحبشى واليمنى ...) وسار عليه الرسم العربى نفسه فى أقدم صوره ، ويسير عليه الآن الرسم الأوروبى فى الطباعة ، بل لقد أخذ هذا الأسلوب ، منذ أمد غير قصير ، ينفذ إلى أقلام الكاتبين باللغات الافرنجية ، وأخذت مدارس كثيرة تسير عليه فى تعليم الهجاء الافرنجى وتأخذ تلاميذها به فى كتاباتهم . وقد رأيت بعد تفكير طويل أن هذا الأسلوب وحده هو الكفيل بتخليص الرسم العربى من عيوبه وتحقيق الغايات التى نرمى إليها على أحسن وجه وأكمله . فبفضله نستطيع أن نرمز إلى أصوات المد القصيرة (الحركات) بعلامات ترسم فى هيكل الكلمة لا فوق حروفها أو تحتها ؛ وبفضله يصبح لكل حرف صورة واحدة لا تتغير مهما كانت حركته وكان موضعه فى الكلمة ؛ وبفضله تختلف أشكال الحروف بعضها عن بعض فيتميز كل حرف منها عن غيره بحسب صورته لا بحسب إعجامه أو إهماله أو عدد نقطه .

صحيح أن من اعتاد الرسم والقراءة على الطريقة القديمة التى تقوم على الاختزال ووصل الحروف بعضها ببعض سيعانى بعض العنت فى السير على هذه الطريقة المرسلة المتفرقة الحروف . ولكن قليلا من المران كفيل بتخفيف هذا العنت وإزالته . على أن عبأه سيكون مقصوراً على أهل الجيل الحاضر ممن تعلموا على الطريقة القديمة . وأمر كهذا لا يقام له وزن بجانب ما تحققه الطريقة المقترحة من تقويم للألسنة والأقلام ، وصيانة للعربية الفصحى ، وتسهيل فى طرق تعلمها وتعليمها ، وتثبيت لملكتها فى النفوس ، وتمكين كل فرد من قراءة أية عبارة قراءة صحيحة مهما كانت درجته فى العلم ضئيلة ، ومهما كان ضعيفاً فى مبلغ إلمامه بقواعد اللغة .

فهرس

(الموضوع)	(الصفحة)
مقـدمة	٥
الفصل الأول ــ تطور اللغة :	٩
أثر العوامل الاجتماعية	١٣
تأثر اللغة بلغات أخرى	٢٥
أثر العوامل الأدبية	٣١
إنتقال اللغة من السلف إلى الخلف وأثره فى التطور اللغوى	٤٧
أثر العوامل الطبيعية	٥٥
أثر العوامل اللغوية	٦١
خلاصة هذا الفصل	٧٧
الفصل الثانى ــ صراع اللغات :	٨١
نزوح عناصر أجنبية إلى البلد وأثره فى صراع اللغات	٨٢
تجاور شعبين مختلفى اللغة وأثره فى صراع اللغات	٩٣
عوامل أخرى للاحتكاك اللغوى	١٠١
خلاصة هذا الفصل	١٠٣
الفصل الثالث ــ تفرع اللغة إلى لهجات ولغات	١٠٧
انتشار اللغة وأسبابه وأثره فى التفرع	١٠٩
العوامل المباشرة فى تفرع اللغة	١١٥
اللهجات المحلية وصراعها بعضها مع بعض	١١٩
نشأة لغة الدولة أو لغة الكتابة	١٢٥
اختلاف نواحى الفصحى باختلاف فنون القول	١٢٧

(الموضوع)	(الصفحة)
اللهجات الاجتماعية	١٢٩
اختلاف لهجة الرجال عن لهجة النساء	١٣٥
خلاصة هذا الفصل	١٣٧
خـــاتمـــة	١٤١
مبلغ تأثر اللغة بالعوامل الاجتماعية وغيرها	١٤٢
خضوع اللغة فى مختلف مظاهر حياتها لقوانين	١٤٣
الطريق الجادة للاصلاح اللغوى	١٤٣
تعليق المرحوم عبد العزيز فهمى (باشا)	
على هذا الكتاب وتعقيب المؤلف عليه	١٤٥

رفع أ علاء الدين شوقى أسكنه الله الفردوس

من مؤلفات الدكتور على عبد الواحد وافى

أولا كتب باللغات الأجنبية :

١ ــ نظرية اجتماعية فى الرق ٢ ــ الفرق بين رق الرجل ورق المرأة	طُبِعَا باللغة الفرنسية بباريس سنة ١٩٣١ وحصل بهما المؤلف على شهادة الدكتوراه بدرجة الامتياز مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة باريس .

ثانياً ــ كتب باللغة العربية :

٣ ــ علم اللغة (الطبعة التاسعة ، مزيدة ومنقحة) .
٤ ــ فقه اللغة (الطبعة التاسعة ، مزيدة ومنقحة) .
٥ ــ نشأة اللغة عند الإنسان والطفل (الطبعة الرابعة ، مزيدة ومنقحة) .
٦ ــ اللغة والمجتمع (الطبعة الرابعة ، مزيدة ومنقحة) .
٧ ــ علم الاجتماع (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة) .
٨ ــ الأسرة والمجتمع (الطبعة السابعة ، مزيدة ومنقحة) .
٩ ــ المسئولية والجزاء (الطبعة الرابعة ، مزيدة ومنقحة) .
١٠ ــ قصة الملكية فى العالم (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة) .
١١ ــ قصة الزواج والعزوبة فى العالم .
١٢ ــ مشكلات المجتمع المصرى والعالم العربى وعلاجها فى ضوء العلم والدين .
١٣ ، ١٤ ــ غرائب النظم والتقاليد والعادات (جزءان) .
١٥ ــ المجتمع العربى .
١٦ ــ الهنود الحمر (سلسلة اقرأ عدد ٨٨ ، الطبعة الثانية) .
١٧ ــ الطوطمية (سلسلة اقرأ ١٩٤) .
١٨ ــ الأدب اليونانى القديم ودلالته على عقائد اليونان ونظامهم الاجتماعى (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة) .

١٩ ــ ابن خلدون منشىء علم الاجتماع .
٢٠ ــ عبد الرحمن بن خلدون : حياته وآثاره ومظاهر عبقريته (ظهر فى سلسلة « أعلام العرب » التى تصدرها وزارة الثقافة) .
٢١ ــ عبقريات ابن خلدون .
٢٢ : ٢٤ ــ « مقدمة ابن خلدون » مع تمهيد وتكملة وتصحيح وشرح وتعليق (ثلاثة أجزاء ، طبعة دار نهضة مصر . بها نحو ثلاثة آلاف تعليق ، وتمهيد فى نحو ٣٥٠ صفحة من القطع الكبير ، وظهرت فيها الفصول والفقرات التى كانت ساقطة من طبعاتها المتداولة وتبلغ حوالى مائة صفحة ، مع فهارس تحليلية وفهارس أبجدية) .
٢٥ ــ آراء أهل المدينة الفاضلة ، مع مقدمة وتصحيح وشرح وتعليق .
٢٦ ــ الاقتصاد السياسى (الطبعة السادسة ، مزيدة ومنقحة) .
٢٧ ــ البطالة ووسائل علاجها والتعليم الاقليمى وأثره فى علاج البطالة (نال جائزة المباراة الأدبية سنة ١٩٣٥) .
٢٨ ــ عوامل التربية (الطبعة الثالثة ، مزيدة ومنقحة) .
٢٩ ــ أصول التربية ونظام التعليم (مع آخرين) .
٣٠ ــ الوراثة والبيئة (الطبعة الثالثة ، مزيدة ومنقحة) .
٣١ ــ اللعب والعمل .
٣٢ ــ مواد الدراسة .
٣٣ ــ حقوق الإنسان فى الاسلام (الطبعة الخامسة)
٣٤ ــ المساواة فى الإسلام (طبعة شركة مكتبات عكاظ ، مزيدة ومنقحة) .
٣٥ ــ الحرية فى الإسلام (سلسلة « اقرأ » عدد ٣٠٤) .
٣٦ ــ بيت الطاعة والطلاق وتعدد الزوجات فى الإسلام (ظهر فى السلسلة التى تصدرها « مؤسسة المطبوعات الحديثة » بعنوان « مع الإسلام ») .
٣٧ ــ الصوم والأضحية فى الإسلام والشرائع السابقة (ظهر فى السلسلة التى يصدرها « المجلس الأعلى للشئون الإسلامية » بعنوان « دراسات فى الإسلام ») وترجم إلى الفرنسية .
٣٨ ــ حماية الاسلام للأنفس والأعراض .
٣٩ ــ المرأة فى الاسلام .
٤٠ ــ بحوث فى الاسلام والاجتماع .
٤١ ــ الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام .(الطبعة الثالثة ، مزيدة ومنقحة)
٤٢ ــ اليهودية واليهود .(الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة)

ثالثاً ــ بحوث باللغات الأجنبية طبعت على حدة :

١ ــ نظرية جديدة فى وأد البنات عند العرب فى الجاهلية (نشر باللغة الفرنسية فى مطبوعات « المجمع الدولى لعلم الاجتماع ») .

٢ ــ حقوق الانسان فى الاسلام (قدم باللغتين الانجليزية والفرنسية إلى مؤتمر حقوق الانسان المنعقد فى أكسفورد فى نوفمبر ١٩٦٥ ونشر فى مطبوعاته بهاتين اللغتين) .

رابعاً ــ بحوث باللغة العربية طبعت على حدة وفصول من كتب :

٣ ــ رغبات المؤتمر الدولى الخامس للتربية العائلية (ترجمة عن الفرنسية وتعليقات ، طبعته وزارة المعارف المصرية سنة ١٩٣٦) .

٤ ــ تعليمات تربوية لمدرسى المدارس المتوسطة والثانوية (طبعته وزارة المعارف العراقية سنة ١٩٣٧) .

٥ ــ ميادين الخدمة الاجتماعية ، شغل أوقات الفراغ (ألقى فى مؤتمر الإصلاح الاجتماعى سنة ١٩٤٠ وقامت بطبعه « رابطة الاصلاح الاجتماعى ») .

٦ ــ الأسرة كعامل اقتصادى (ألقى فى مؤتمر الإصلاح الاجتماعى فى سنة ١٩٤٠ وقامت بطبعه « رابطة الإصلاح الاجتماعى ») .

٧ ــ الحرية والمساواة والإخاء فى الإسلام (ألقى فى مؤتمر الإصلاح الاجتماعى سنة ١٩٤١ وقامت بطبعه على حدة « جماعة التعريف الدولى بالإسلام ») .

٨ ــ الصوم (فصلة من مجلة كلية الآداب عدد مايو ١٩٥٠) .

٩ ــ النظم الدينية عند قدماء اليونان .

١٠ ــ أقدم البحوث الاجتماعية عند قدماء اليونان .

١١ ــ الشعر الحماسى عند قدماء اليونان .

١٢ ــ النزعات الاجتماعية الفطرية عند الحيوان .

١٣ ــ الفلسفة الاجتماعية لابن خلدون وأوجيست كونت (ظهرت هذه البحوث الخمسة الأخيرة مطبوعاً كل منها فى فصلة على حدة فى مؤلفات « الجمعية المصرية لعلم الاجتماع » سنتى ١٩٥١ ، ١٩٥٢) .

١٤ ــ حقوق كل من الزوجين وواجباته فى الأسرة المصرية (ألقى فى مؤتمر لرابطة الإصلاح الاجتماعى ونشرته لجنة المؤتمرات والندوات بالرابطة فى يناير ١٩٥٦) .

١٥ ــ الاختلاط بين الجنسين (ألقى فى مؤتمر رابطة الإصلاح الاجتماعى ونشرته لجنة الندوات بالرابطة فى مارس ١٩٥٦) .

١٦ ــ تطور البيت العربى وأثر المدنية الحديثة فيه (من مطبوعات إدارة الشئون الاجتماعية بجامعة الدول العربية) .
١٧ ــ نظام الأسرة فى الإسلام (فصل من كتاب « الإسلام اليوم وغداً » نشرته مكتبة عيسى الحلبى سنة ١٩٥٧) .
١٨ ــ مشكلة مصر هى قلة النسل لا كثرته (من مطبوعات ، إدارة الثقافة بوزارة الأوقاف سنة ١٩٥٨) .
١٩ ــ كيف يتكلم الطفل (كتاب الشهر من مجلة « حياتك » عدد اكتوبر ١٩٥٨) .
٢٠ ــ المدرسة المصرية (كتاب الشهر من مجلة « حياتك » عدد ديسمبر ١٩٥٨) .
٢١ ــ ألعاب الطفل (كتاب الشهر من مجلة « حياتك » عدد فبراير ١٩٥٩) .
٢٢ ــ الوراثة والبيئة (كتاب الشهر من مجلة «حياتك » عدد أبريل ١٩٥٩) .
٢٣ ــ وظائف الأسرة (كتاب الشهر من مجلة «حياتك » عدد سبتمبر ١٩٥٩).
٢٤ ــ الإسلام فى المجتمع العربى (محاضرة عامة أُلقيت فى قاعة محمد عبده فى مايو ١٩٥٩ وقامت الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر بطبعها على حدة سنة ١٩٥٩) .
٢٥ ــ الرد على الشيوعيين العراقيين فى افترائهم على الإسلام فى كراستهم الرمادية (الكتاب رقم ٣٢ من كتب قومية صدر فى نوفمبر ١٩٥٩) .
٢٦ ــ علم اللغة (فصل من « السجل الثقافى » لسنة ١٩٦٠ ، تصدره وزارة الثقافة والإرشاد) .
٢٧ ــ علم الاجتماع (فصل من « السجل الثقافى » لسنة ١٩٦١ ، تصدره وزارة الثقافة والإرشاد) .
٢٨ ــ علم الاجتماع (فصل من « السجل الثقافى » لسنة ١٩٦٢ ، تصدره وزارة الثقافة والإرشاد) .
٢٩ ــ ابن خلدون أول مؤسس لعلم الاجتماع (ألقى فى مهرجان ابن خلدون المنعقد فى القاهرة سنة ١٩٦٢ . ونشرو مع بقية بحوث المهرجان فى كتاب خاص « المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية » بعنوان « أعمال مهرجان ابن خلدون ») .
٣٠ ــ مقدمة ابن خلدون (فصل من العدد الرابع من المجلد الأول من السلسلة التى تصدرها وزارة الثقافة تحت عنوان « تراث الإنسانية » ، أبريل سنة ١٩٦٣) .
٣١ ــ آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى (فصل من العدد السابع من المجلد الثانى من السلسلة التى تصدرها وزارة الثقافة تحت عنوان « تراث الإنسانية » يوليه ١٩٦٤) .
٣٢ ــ الحرية المدنية فى الإسلام (ألقى فى الموسم الثقافى لجامعة أم درمان الإسلامية سنة ١٩٦٧ وطبعته الجامعة فى فصلة على حدة) .

٣٣ ــ القرآن وحرية الفكر (ألقى فى مؤتمر أسبوع القرآن الذى عقدته جامعة أم درمان الإسلامية سنة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٨ م ، وقامت الجامعة بطبعه مع بقية بحوث المؤتمر ، وعمل فصلة منه على حدة) .

٣٤ ــ التراث العربى وأثره فى علم الاجتماع (ألقى فى الحلقة التى عقدتها جمعية الأدباء بالقاهرة سنة ١٩٦٨ . وقامت الجمعية بطبعه مع بقية بحوث المؤتمر ، وعمل فصلة منه على حدة) .

٣٥ ــ الوراثة وقوانينها وآثارها فى الفرد والأسرة والمجتمع (فصلة من العدد الثانى من مجلة جامعة أم درمان الإسلامية ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م) .

٣٦ ، ٣٧ ــ التعليم الاقليمى وأثره فى علاج البطالة ؛ البطالة بين طبقة المشتغلين بالزراعة : أسبابها ووسائل علاجها (بحثان ألقيا فى المؤتمر الذى عقدته جامعة أم درمان الاسلامية سنة ١٩٦٩ ، وطبعا مع بقية أعمال المؤتمر) .

٣٨ ــ الملكية الخاصة فى الإسلام (ألقى فى الموسم الثقافى سنة ١٩٦٩ لجامعة أم درمان الإسلامية وقامت الجامعة بطبعه مع بقية بحوث الموسم وعمل فصلة منه على حدة) .

٣٩ ــ التكامل الاقتصادى فى الاسلام (بحث قدم إلى « مجمع البحوث الاسلامية » بدعوة منه ، وألقى فى مؤتمره السادس المنعقد فى مارس ١٩٧١ . وقام المجمع بطبعه فى كتاب على حدة) .

٤٠ ، ٤١ ــ المرأة والأسرة فى الاسلام ، الحرية المدنية فى الاسلام (بحثان ألقيا فى « الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى » ، المنعقد فى مدينة قسنطينة بجمهورية الجزائر فى شهر أغسطس سنة ١٩٧٠ ، وطبعا مع بقية بحوث الملتقى فى كتاب بعنوان « محاضرات الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى ») .

٤٢ : ٤٤ ــ اللغة العربية فى الوطن العربى : أهميتها وتاريخها ؛ نظام الطلاق فى الاسلام ؛ نظام الاقتصاد فى الاسلام (ثلاثة بحوث أرسلت إلى « الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى » المنعقد فى مدينة وهران بجمهورية الجزائر من ٢٥ /٧/ ١٩٧١ إلى أول أغسطس ١٩٧١ . وطبعت مع بقية بحوث الملتقى فى كتاب بعنوان « محاضرات الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى ») .

٤٥ ــ موقف الاسلام من الأديان الأخرى ، والرد على ما يفتريه بعض مؤرخى الفرنجة وبعض المستشرقين على الاسلام فى هذا الصدد (بحث ألقى فى « المؤتمر السادس للتعرف على الفكر الاسلامى » المنعقد فى مدينة الجزائر عاصمة الجمهورية الجزائرية من ٢٠ /٧/ ٧٢ إلى ١١ /٨/ ٧٢ ، وطبع فى الجزء الثانى ، صفحات ٣٩٣ : ٤٢٨ مع تعقيبات عليه ومع بقية بحوث المؤتمر فى كتاب من خمسة أجزاء) .

٤٦ ـــ معجم العلوم الاجتماعية : أصدرته الشعبة القومية للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو) . وقد حرر الدكتور على عبد الواحد وافى ٣٤ مصطلحاً من مصطلحات علم الاجتماع وراجع جميع مصطلحات علم الاجتماع التى كتبها غيره وتبلغ حوالى ٣٧٠ مصطلحاً ، وأحال المحررون على مؤلفاته فى نحو ١٤٥ مصطلحاً .

٤٧ ـــ الصيام فى الاسلام والشرائع السابقة (محاضرة من محاضرات « الدروس الحسنية الرمضانية » لسنة ١٣٩٤ هـ . وهى المحاضرات التى جرت عادة جلالة الملك الحسن الثانى ملك المغرب أن يدعو لالقائها عدداً من العلماء من المغرب ومن البلاد العربية والاسلامية . وتلقى هذه المحاضرات فى القصر الملكى أمام جلالة الملك نفسه ، ويدعى لسماعها كبار رجال الدولة والجيش والقضاء وأعضاء البعثات الاسلامية الدبلوماسية فى المغرب وعدد كبير من الفقهاء والعلماء وسراة القوم من المغاربة وغيرهم . وقد قامت وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية فى المغرب بطبع محاضرات هذا الموسم فى مجلد واحد . وتشغل هذه المحاضرة صفحات ٢٦٧ : ٢٨١ من هذا المجلد) .

٤٨ ـــ واقع التشريع اليوم فى العالم العربى ومدى انحرافه عن روح الشريعة الاسلامية ونصوصها وعن تقاليدنا وعرفنا الخلقى . (بحث أرسل إلى الملتقى السابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد فى مدينة تيزى ووزو بالجمهورية الجزائرية من ١٠ إلى ٢٠ يوليو ١٩٧٣) .

٤٩ ـــ أثر تطبيق النظام الاقتصادى فى الاسلام . من بحوث « مؤتمر الفقه الاسلامى » المنعقد فى الرياض سنة ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م ، وطبع مع بقية بحوث المؤتمر .

٥٠ ـــ سماحة الاسلام فى مناهج الدعوة إلى الله . بحث نشر فى مجلة « المعهد العالى للدعوة الاسلامية » بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض سنة ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م ، وقام المعهد بعمل فصلة منه على حدة .

٥١ ـــ نداء المخاطبين فى القرآن : أسراره وبلاغته . بحث نشر فى مجلة كلية اللغة العربية بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض سنة ١٣٩٨ هـ . وقامت الكلية بعمل فصلة منه على حدة .

٥٢ ـــ لا يطل دم فى الاسلام . بحث نشر فى مجلة كلية الشريعة بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض سنة ١٣٩٨ هـ ، وقامت الكلية بعمل فصله منه على حدة .